دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	الفكر السياسي في الشعر الأموي : المحتوى و الفن
المصدر:	حولية كلية اللغة العربية بالزقازيق
الناشر:	جامعة الأزهر - كلية اللغة العربية بالزقازيق
المؤلف الرئيسي:	غراب، سعيد أحمد
المجلد/العدد:	ع34, مج4
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2014
الصفحات:	3329 - 3418
رقم MD:	662997
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	AraBase
مواضيع:	الدولة الأموية ، الشعر العربي ، الفكر السياسي ، نقد الشعر
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/662997

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

جامعة الأزهر

كلية الدراسات الإسلامية والعربية

بنين بدسوق

الفكر السياسي في الشعر الأموي

المحتوى والفن

إعداد الدكتور

سعيد أحمد غراب

مدرس الأدب والنقد في كلية الدراسات الإسلامية والعربية

للبنين بدسوق

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، نحمده ونشكره، ونستمطر المزيد من نعمه وآلائه، ونصلي ونسلم على سيدنا ومولانا رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، النبي الأمي الهادي البشير، وعلى آله وأصحابه، نجوم الهداية، وأعلام الرشاد.

أما بعد:

فقد درج شعراء العربية منذ العصر الجاهلي على التعبير عن وجوه حياتهم، سواء منها ما يتصل بالقبيلة في حياتها المستقلة، أو بغيرها من القبائل العربية المجاورة سلما وحرباً، من أجل الصراع على ضروريات الحياة، وقيمها المادية والاجتماعية التي تمثل محوراً رئيساً للحياة العربية.

وعلى الرغم من وجود لون من العلاقات بين القبائل العربية – سلما وحرباً – إلا أنها لم تبلغ درجة من النضج والاكتمال، بحيث يسوغ لنا أن نسميها علاقات سياسية؛ فالعربي – في ذلك الوقت – لم تكن قد اكتملت لديه مقومات الدولة أو الشعب الذي يرتبط بالسياسة الناضجة، وإنما ظل مرتبطاً بكيانه القبلي المستقل، وقد عبر الشعر الجاهلي عن ذلك خير تعبير(١).

وحين ظهرت الدعوة الإسلامية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، بدأ مفهوم السياسة يشيع وينتشر بخطى وئيدة، وذلك حين استطاع صوت العقيدة الجديدة أن يعلو كل الأصوات التي كانت تدين بالانتماء القبلي، لاسيما بعد أن جاءت جحافل القبائل العربية من كل صوب وحدب تعلن انتماءها للدين الجديد، الذي جمعهم حول مبدأ موحد وهو الإيمان الذي تمتزج فيه العقيدة

(١) للباحث دراسة بعنوان: الهجاء الجاهلي ودوره في توجيه الحياة العربية والمحافظة على القيم، وفيه يبدو العربي حريصاً على المحافظة على كيانه الاجتماعي القبلي دون أن يشعر بأية حدود تفصل حياته الفردية وتجاربه الخاصة عن حياة قبيلته وتجاربها.

بنظام الحكم، وبناء المجتمع، وعلاقة المسلم بغيره من أبناء المجتمعات والديانات المختلفة وهي أمور سياسية بحتة كما لا يخفي.

وحين تولى معاوية بن أبي سفيان الخلافة – بعد مقتل عثمان بن عفان – أفضى ذلك إلى قيام وجهات نظر سياسية متنافرة حول مسألة الخلافة، وما لبثت تلك الوجهات أن تحولت إلى أحزاب سياسية قوية، كل منها يحاول تأكيد موقفه، وإثبات أحقيته في الخلافة عن طريق تقديم بعض الحجج العقلية، والتأويلات الدينية.

فالشيعة: يرون الخلافة في علي وأبنائه من بعده، متكئين – في ذلك – على قرابة الإمام على من الرسول (صلى الله عليه وسلم) ثم صحبته الحميمة له، ثم لعلمه وورعه وتقواه.

والخوارج: يذهبون إلى ترك أمر الخلافة شورى بين المسلمين، ويختار له الكفء والأصلح، ويقدمون كثيراً من النصوص الدينية الصريحة التي تنادى بالتسوية بين المسلمين.

والزبيريون: يرون أن الخلافة حق لقريش على إطلاقها، ويختار لها الكفء والأصلح، وليس أصلح لها من ابن الزبير.

ولأن مدتهم وسلطانهم لم يدم طويلاً، فإنهم لم تتكون لهم فلسفة سياسية خاصة، ولم يظهر لهم حزب سياسي بالمعنى الصحيح.

أما الأمويون: فقد كان موقفهم من أمر الخلافة ضعيفاً بالنسبة لغيرهم من الأحزاب الأخرى، فهم لم تبلغ قرابتهم للرسول (صلى الله عليه وسلم) مبلغ قرابة على له، كما أنهم لم يكن لهم من الورع والتحنث الديني ما لعلى وأولاده...

ومن هنا، راحوا يقدمون أنفسهم للناس على أنهم رعاة الدين، وحراس العقيدة، وهو ما يمثل حقاً أصيلاً لهم في الخلافة من وجهة نظرهم.

والناظر في هذا الشأن "يرى أن العقيدة ظلت محوراً لتلك الخصومات السياسية بين تلك الأحزاب، يلتمس كل حزب فيها بيانا لحقه وإعلاء لشأنه، وتأييداً لنظريته، ويرمى سواه من الأحزاب بالخروج عليها في السلوك، والأخلاق، ونظام الحكم"(١).

ومن هنا يمكن القول" إن الشعر السياسي لم ينهض نهضة ملموسة، ولم تتشكل له ملامح محددة في عصر ما، كما حدث ذلك في العصر الأموي.

ولقد دفعني إلى دراسة موضوع "الفكر السياسي في الشعر الأموي" أمور عديدة منها: ما شاع على ألسنة الدارسين من أن الشعر السياسي في العصر الأموي، كان سبا محضاً بين الأحزاب، وقذفاً صريحاً، وخروجاً على أصول الدين، وقواعد الأخلاق، والحق يخالف ذلك ويجافيه؛ فاختلاف الانتماء الحزبي – كما سيظهر من هذه الدراسة – ساعد على خلق لونٍ من الجدل والحوار الفني المفيد بين الشعراء، وقد أدى هذا – بدوره – إلى تجويد الفن الشعري في تجاوب فكري وأدبي رائع بين كافة شعراء الأحزاب.

ومنها: أن العصر الأموي من أكثر فترات التاريخ العربي الإسلامي إثارة، وقد كان الشعر السياسي هو صانع هذه الإثارة، والداعي إليها، ورافع أعلامها كما سيتبين لنا خلال هذا البحث.

ومنها: أن السياسة في العصر الأموي استطاعت السيطرة على الجميع الفنون الشعري، وأن تدخلها دائرتها، فالمدح مدح سياسي، والهجاء هجاء سياسي، والرثاء رثاء سياسي، حتى الغزل دخل دائرة السياسة، حين كان بعض الشعراء يقومون بالتغزل في نساء خصومهم؛ تشهيراً وازدراء، وإساءة إلى نسائهم.

---

(١) في الشعر الإسلامي والأموي، د. عبد القادر القط/ ٢٧٣، دار المعارف ١٩٩٥ م.

وهكذا، نرى أن الفكر السياسي المتصارع في العصر الأموي، كان له أثره الواضح على شعر الأحزاب السياسية المختلفة، مما يجعل هذا الشعر قمينا بالإنصات إليه، والاقتراب منه لفهم ما يتضمنه من فكر وفن غاية في الروعة والجمال.

وجرياً على العادة في البحث العلمي، جعلت هذه الدراسة قائمة على: مقدمة، وثلاثة فصول.

الفصل الأول: ويحمل عنوان: المنطلقات الفكرية والعقدية للأحزاب السياسية في العصر الأموي.

الفصل الثاني: ويحمل عنوان: الاتجاهات الموضوعية لشعر الأحزاب السياسية في العصر الأموي.

الفصل الثالث: ويحمل عنوان: الخصائص الفنية لشعر الأحزاب السياسية في العصر الأموي.

ثم أعقبت ذلك بفهرس للمراجع والمصادر، ثم فهرس للموضوعات، وقد ركزت – في هذه الدراسة – على أن يكون الكلام جديداً ومركزاً، كما حاولت – قدر استطاعتي – طرح الحشو والفضول، والقصد إلى الهدف من أقرب طريق، وعلى الله قصد السبيل.

وصلى اللهم على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه الطيبين الأطهار وسلم تسليماً كثيراً.

الباحث

سعيد أحمد غراب

الفصل الأول

المنطلقات الفكرية والعقدية

للأحزاب السياسية في العصر الأموي

تمهيد:

عرف العرب التوحد والتجمع تحت راية الإسلام، كما عرفوا مكانة الاتحاد والانصياع لقيادة حكيمة رشيدة، تمثلت في الرسول (صلى الله عليه وسلم)، فكان عليه الصلاة والسلام رأس الدولة، يتلقى الوحي من ربه، ويبلغ رسالته للناس، ويقود الجيوش ويعقد المعاهدات، كما أنه (صلى الله عليه وسلم) كان القاضي بين الناس بما أمره الله، وراعي الحقوق بالعدل والقسطاس المبين.

وقد كان ذلك كله في شكل حكومة دينية، تقوم على أساس ديني قويم، ومن ثم تمثلت قوتها في سلامتها من الأهواء والأطماع، وطاعة أفرادها جميعاً لله رسوله.

وبعد وفاة النبي (صلى الله عليه وسلم) أصبح الأمر إلى أبى بكر الصديق[١] باختيار المسلمين له في سقيفة بنى ساعدة، وواجه خليفة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مخاطر جمة، لكنها لم تثنه عن عزيمته في توحيد أركان الدولة، وتثبيت دعائم الوحدة الإسلامية.

وقد رشح أبو بكر عند وفاته عمر بن الخطاب[٢] للقيام بأعباء هذا المنصب الخطير، فسار على نهج سلفه، ولم ينازعه منازع، وازدادت الدولة في عهده قوة وهيمنة، كما اتسعت رقعتها لاسيما بعد القضاء على الدولتين المتاخمتين: الفرس والروم.

---

(١) هو عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن كعب التميمي القرشي، ولد عام ١٥ق.هـ، وتوفى عام ١٣هـ، وهو أول الخلفاء الراشدين (الأعلام، الزركلي، ج١٠٢/٤).

(٢) عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي العدوي، ثاني الخلفاء الراشدين، ولد عام ٤٠ق.هـ، وتوفى عام ٢٣هـ (الأعلام ج٤٥/٥).

وفي زمنه (رضي الله عنه) أقيمت مدينتا البصرة، والكوفة بأرض العراق، وكان لهما شأن في تاريخ العرب السياسي والاجتماعي والثقافي[١].

وعند وفاة عمر رشح للخلافة من بعده ستة من الصحابة، وقد سموا بأهل الشورى، على أن يختار من بينهم واحد للنهوض بأعباء الخلافة، وشئون الدولة[٢].

وبعد جدل، وقع الاختيار على سيدنا عثمان بن عفان، وما كادت الأمور تنتقل إليه، حتى بدت في الأفق فتنة عارمة تكشر عن أنيابها، وعلى أثرها انقسم المسلمون إلى أمويين وهاشميين، وكان أنصار (علي) يرونه الأحق بالخلافة من غيره بالسبقة إلى الإسلام، وتضحيته في سبيل الله، ولمكانته من رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وهو زوج ابنته فاطمة (رضي الله عنها) وكان في عثمان بن عفان[٣] ما يغرى ويشجع على اشتعال نيران الفتنة؛ وذلك بلينه، وتساهله، وسياسته التي سلكها تجاه الولاة الذين ولاهم عمر من قبله، إذ قام بعزلهم، وتولية أقاربه مكانهم، وقد ساعدهم (عثمان) بذلك على الانغماس في اللهو والترف، وامتلاك الدور والضياع، كما أنه اتخذ (مروان بن الحكم) وزيراً له، وهو ابن عم الحكم بن أبي العاص، الذي أخرجه الرسول (صلى الله عليه وسلم) من المدينة حين آذاه، ولم يتمكن من العودة إليها إلا في خلافة عثمان بن عفان.

وازدادت الأمور سوءاً بمقتل عثمان إذ كان ذلك نذير شؤم، ومطلع فتنة كبرى، ومثار حروب وإحن عصفت بالأمة الإسلامية ووحدتها عصفاً شنيعا لم يسبق له مثيل[٤].

---

(١) راجع: دراسات أدبية في عصر بني أمية، د/ صلاح عبد التواب وآخرين/١٠٢، ط٢، مطبعة الحرمين، طنطا ٢٠٠٥م.

(٢) تاريخ الطبري، ج٥/٣٤، ط١، مطبعة الحسينية المصرية.

(٣) عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية، ثالث الخلفاء الراشدين، ولد بمكة عام ٤٧ق.هـ، وتوفى عام ٣٥هـ (الأعلام، ج٤/٢١٠).

(٤) يراجع في ذلك سيرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان شخصيته وعصره، د/ علي محمد الصلابي/ ٣٥١ وما بعدها؛ دار التقوى للطبع والنشر والتوزيع، شبر الخيمة ٢٠٠٧م.

وفي خضم هذه الأحداث بايع المسلمون (علياً) بالخلافة، وقد اجتهد أن يرأب الصداع ويلم شمل المسلمين، ويعيد الأمور إلى نصابها التي كانت عليها قبل خلافة عثمان، لكن دون ذلك خرط القتاد، فقد اتسع الخرق على الراقع، وباتت الأمور معقدة، والفتنة قد استشرت وعظم لهيبها، ووقع صدام بغيض بين الصحابة، وطالب بعضهم – وعلى رأسهم معاوية بن أبي سفيان – بالثأر لمقتل عثمان، واتهم (عليا) بالتهاون في الدفاع عنه، وأنه آوى قتلته، وتتسرب نوازع الخير من قلوب الأسرتين لتتأصل مكانها عناصر الشحناء والكراهية، وتقوم الحرب بين جند علي بن أبي طالب، وبين بني أمية في موقعة الجمل[1]، تلك التي ساند الأمويين فيها كل من: عائشة أم المؤمنين، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وفيها تعلو كفة علي بن أبي طالب والكوفة.

وما تكاد تخمد نيرانها، حتى تضطرم جذوة نيران أخرى بينهما في موقعة "صفين"[2] التي أدت في النهاية إلى انقسام جند علي بن أبي طالب من حوله، وظهور جماعات الخوارج، الذين رفضوا الرجوع معه إلى الكوفة، ونزلوا قرية "حروراء" فسموا بالحرورية، كما تم لمعاوية الاستيلاء على مصر، واتخاذها مقراً لدعوته بالخلافة إلى نفسه.

ويدرك علي بن أبي طالب خطر هذا الأمر، فيعد جيشاً كبيراً لقتال معاوية، والقضاء عليه، ولكنه لا يتمكن من ذلك؛ حيث تسبق إلى قلبه طعنة الخارجي: عبد الرحمن بن ملجم بسيفه المسموم، فيلحق بربه، وتنكس بذلك آخر راية للخلفاء الراشدين، في السابع عشر من رمضان عام أربعين من الهجرة.

---

(١) كانت بين جيش الإمام علي، ومعاوية، وذلك سنة ٣٦هـ، وسميت بذلك؛ لاشتراك السيدة عائشة في أحداثها، وقد ركبت جملاً لها يسمى عسكر.

(٢) صفين: موضع قريب من الرقة، وفيها وقعت هذه المعركة بين الإمام علي ومعاوية، وذلك سنة ٣٧هـ.

وبعد مقتل "علي" استخلف المسلمون ابنه "الحسن" لكنه آثر التنازل عنها؛ حقنا لدماء المسلمين، فأرسل إلى معاوية يطلب التصالح معه، والتنازل عن الخلافة على أن يكون الأمر شورى بينهم بعد معاوية بن أبي سفيان.

ويذكر الطبري: أن الحسن حين أراد التنازل عن الخلافة، قام في أهل العراق خطيباً فقال: "يا أهل العراق" إنه سخي بنفسي عنكم ثلاث: قتلكم أبي، وطعنكم إياي، وانتهابكم متاعي[1].

فلما بايع الحسن "معاوية" بالخلافة، بايعه الناس، فخلص له الأمر حينئذ واتفق الجميع على ذلك، ويسمى ذلك العام (هـ٤١) عام الجماعة؛ لاجتماع المسلمين فيه على إمام واحد، هو معاوية بن أبي سفيان الذي بدأت به الدولة الأموية عصرها (٤١-١٣٢هـ،) الموافق (٦٦١-٧٤٩م).

وهو عصر عربي الصبغة، قام على القهر والدهاء، والتفنن في إيقاظ العصبيات التي نجح الإسلام في وأدها، كما كثر فيه الإغداق بالعطاء على الشعراء، مما كان له عظيم الأثر في قيام نهضة شعرية كبرى، أسهمت في التعبير عما دار في هذا العصر من أحداث وقلاقل مختلفة.

وقد استطاع معاوية بدهائه، وبذله، واستعانته بدهاة الرجال – أمثال عمرو بن العاص – أن يوطد ملكه، وأن يسكت حزب الشيعة الذي يناصر علياً، وحزب الخوارج الذي يعادى الشيعة والأمويين معاً.

ولما مات يزيد بن معاوية، نهض عبد الله بن الزبير بمكة يدعو لنفسه، حتى بويع فعلا بالخلافة، فظهر حزب رابع يؤيد آل الزبير، وسمي الحزب الزبيري.

وقد ظلت هذه الأحزاب تتقاتل بالسيوف وبالألسنة، حتى استطاع عبد الملك بن مروان أن يقضي على الحزب الزبيري، بقتل مصعب بن الزبير في العراق، ثم قتل عبد الله بن الزبير في مكة،

---

(١) تاريخ الطبري، ج٢/٩٢.

كما استطاع أن يخمد أنفاس الشيعة بالوعد والوعيد، والبذل والتهديد، وظل يحارب الخوارج، ولكن الحزب الشيعي لم يمت، بل ظل ينتهز الفرص، فكلما وجد فرصة، ظهر وثار[1].

وبهذا التمهيد، ندرك التأثير البعيد المدى، الذي أحدثته هذه الأحزاب السياسية، وندرك قوة تأثيرها في الأدب العربي فقد كان لكل حزب شعراؤه الذين يدافعون عنه، ويهاجمون خصومه، ويحمسون رجاله لخوض المعارك، ويرغبون في الاستشهاد؛ حفاظاً على العقيدة، ونصرة للحق.

وسوف نتعرف في الصفحات القادمة – إن شاء الله – على هذه الأحزاب ، وعلى المنطلقات الفكرية والعقدية التي انطلق منها كل حزب، وعلى ظروف نشأته، وملامح تكوينه، والملابسات التي تحكم حركة أصحابها، وتحدد اتجاهاتهم وما سوى ذلك مما كان الشعر صدى له، وتعبيراً عنه، وإليك البيان والتفصيل.

أولاً: الحزب الأموي الحاكم:

ينتهي نسب الهاشميين والأمويين إلى جد واحد، وهو عبد مناف بن قصي بن كلاب، ولقد اجتمع في هاتين الأسرتين شرف قريش في الجاهلية، حتى جاء الإسلام وأمر السقاية موكول إلى بني هاشم، واللواء في أيدي بني أمية ولم تخل حياة الأسرتين – شأن الأسر والقبائل العربية جميعاً – من رغبة في السبق، وتحقيق علو المنزلة، وحيازة أسباب المجد والشرف.

وقد ظل الحال هكذا، حتى جاء الرسول (صلى الله عليه وسلم) مبعوثاً للناس كافة، رافعاً راية الإسلام طالباً إجابة الناس أجمعين ولما كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ..... فإن الأمويين أحسوا موجدة من أن ينال هذا الشرف بنو هاشم،

(١) يراجع: الأدب وتاريخه في العصرين الأموي والعباسي، د علي محمد حسن العماري/١١، ١٢، الشركة المصرية للطباعة والنشر ١٩٨١م.

فتظل بيدهم أسباب المجد والسيادة إلى آخر المدى .... ومن هنا، كان صمودهم في مواجهة الدعوة الجديدة، حتى خضعوا لها – طوعا أو كرها – يوم فتح مكة[1].

وربما جاء دخولهم تحت راية الإسلام – بقيادة أبي سفيان بن حرب يومئذ – محاولة أخيرة لإدراك شيء من السيادة والشرف، لا سيما بعد أن ظهر أمر الدين، وعلت رايته، ومنذ تلك اللحظة، وبنو أمية يحرصون – عن طريق هذا الدين – على نيل ما فقدوا من السيادة بسببه.

وباستخلاف أبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، يخرج الأمر من أيدي الهاشميين والأمويين معاً، ولكن ما إن يتولى الخلافة عثمان بن عفان – وهو أموي – حتى يتنفس الأمويون الصعداء، ويشعروا أن باب السيادة على العرب جميعاً – وليس على قريش أو مكة وحدها – قد فتح على مصراعيه أمامهم.

وقد جاء في مروج الذهب ومعادن الجوهر: أن أبا سفيان بن حرب، دخل على بعض الأمويين، وقد اجتمعوا في دار عثمان بن عفان، بعد إعلان البيعة له بالخلافة، وسألهم – وكان بصره قد كف آنذاك – "أفيكم أحد من غيركم؟ قالوا: لا قال: يا بني أمية، تلقفوها تلقف الكرة، فو الذي يحلف به أبو سفيان، مازلت أرجوها لكم، ولتصيرن إلى صبيانكم وراثة"[2].

وتذكر الرواية التي معنا، إن سيدنا عثمان غضب من هذه اللهجة، وانتهز أبا سفيان بن حرب.

ولكن إن كان هذا الأمر لم يعجب عثمان، وهو من ذوى السبق في الإسلام، وليس من طلقاء يوم الفتح، فلقد حفظ معاوية الدرس من أبيه، ووعى النصح عن أستاذه الأول، ونذر معاوية

---

(١) يراجع: الطبري، ج٣/٢٤٣.

(٢) المسعودي، ج٢/٢٥١، ٢٥٢، مطبعة السعادة، القاهرة ١٩٥٨م.

نفسه – منذ تلك اللحظة – لتحقيق هذا الحلم حين تواتيه الفرصة ..... بل عليه أن يسعى لتهيئة تلك الفرصة، وهو في سعيه يحالف كل أحد، ويدفع كل غالٍ وثمين.

ومن العجب: أن معاوية قد تولى إمارة دمشق في خلافة عمر بن الخطاب، وكان أخوه يزيد متولياً إمارة الأردن لأيام عمر كذلك، فلما مات يزيد، ضم عمر الأردن إلى معاوية، فظل والياً عليهما حتى مقتل عمر واستخلاف عثمان، فأقره عثمان عليهما وأضاف إليه فلسطين، وحمص، بعد أن مات والي الأولى، واستعفى والي الثانية.

ومنذ ذلك الحين، دانت الشام كلها لمعاوية، ومنحه طول مكوثه بها: معرفة بقبائلها، وقد استطاع أن يتودد إليهم، ويوثق رباطه بهم حين تزوج منهم، حيث تزوج "ميسون بنت بحدل الكلبية"، فأصبحوا ناصريه ومحبيه، ولا يعرفون من أمر الخلافة والخليفة شيئاً سوى معاوية.

كان هذا حال معاوية في الشام حين بلغه مقتل عثمان، مصحوباً باتهام الهاشميين، وتحريض معاوية على الثأر من قتلته، وإغرائه بمحاولة الإمساك بالخلافة في بني أمية، "وبينما معاوية ذات يوم جالس، إذ دخل عليه رجل، فقال السلام عليك يا أمير المؤمنين، فقال معاوية، وعليك، من أنت لله أبوك ... فقد روعتني بتسليمك علي بالخلافة قبل أن أنالها؟ فقال: أنا الحجاج بن خزيمة بن الصمة، قال: ففيم قدمت؟ قال: قدمت قاصداً إليك بنعي عثمان، ثم أنشأ يقول:

إن بـــني عمـــك عبـــدالمطلب هـم قتلـوا شـيخكم غـير الكـذب

وأنـت أولى النـاس بالوثـب فثـب وســر مســير المحزئــل المتلئــب[1]

ثم قال: إنك تقوى بدون ما يقوى به علي؛ لأن معك قوماً لا يقولون إذا سكت، ويسكتون إذا نطقت، ولا يسألون إذا أمرت، ومع على قوم يقولون إذا قال، ويسألون إذا سكت،

(١) احزأل البعير في سيره احزئلالاً، أي: ارتفع، واحتزل: احتزم بالثوب (اللسان جـ١١/١٥٠، مادة حزل) واتلأب الأمر اتلئباباً، أي: استقام وانتصب (لسان العرب جـ١/٢٣٢، مادة تلب).

فقليلك خير من كثيره، وعلى لا يرضيه إلا سخطك، ولا يرضى بالعراق دون الشام، وأنت ترضى بالشام دون العراق، فضاق معاوية بما أتاه به الحجاج بن خزيمة ذرعاً فقال:

أتاني أمـــر فيـــه للنـــاس غمـــة ... وفيـــه بكـــاء للعيـــون طويـــل

مصـــاب أمـــير المـــؤمنين وهـــذه ... تكادهـــا صـــم الجبـــال تـــزول

تـــداعت عليـــه بالمدينـــة عصـــبة ... فريقـــان: مـــنهم قاتـــل، وخـــذول

ســـألحقها حـــربا عـــواناً ملحـــة ... وإني بهـــا مـــن عامنـــا لكفيـــل[1]

ولا يجد الوليد بن عقبة – أخو عثمان بن عفان لأمه – حرجاً من اتهامه علياً وبني هاشم بقتل عثمان صراحة، وإنذارهم بحرب شديدة، إذ بلغه أن "عليا" أخذ إبل الصدقة من دار عثمان، وما كان يوجد بها من سلاح، يقول في ذلك[2].

بـني هاشـم، ردوا سـلاح ابـن أختكم ... ولا تنهبـــوه، لا تحـــل مناهبـــه

بـــني هاشـــم، لا تعجلـــوا بإقـــادة ... ســـواء علينـــا قـــاتلوه وســـالبه[3]

وإنا وإياكـــم ومـــا كـــان مـــنكم ... كصدع الصفا لا يرأب الصدع شاعب بني

هاشـــم، كيـــف التعاقـــد بيننـــا ... وعنـــد علـــي ســـيفه ونجانبـــه؟[4]

لعمـرك لا أنسـى ابـن أروى وقتلـه ... وهـل ينسين الماء ما عاش شاربه[5] هم

قتلـــوه؛ كـــي يكونـــوا مكانـــه ... كمـــا غـــدرت يومـــا بكســـرى مرازبـــه

وإني لمجتـــاب إلـــيكم بجحفـــل ... يصـــم الســـميع جرســـه وجلائبـــه[6]

---

(١) الأخبار الطوال، الدينوري/ ١٥٦، طبعة لندن ١٩١٢م، والأبيات من الطويل.

(٢) يراجع الخبر في: الأغاني، لأبي فرج الأصفهاني، ح١٢٢/٥، طبعة دار الشعب، القاهرة ١٩٦٩م.

(٣) الإفادة: القصاص والانتقام.

(٤) النجائب: الإبل العربية الأصيلة.

(٥) أروى: اسم أم سيدنا عثمان بن عفان

(٦) الجحفل: الجيش العظيم.

وتظل هذه الفكرة – فكرة أن علياً وبني هاشم وراء مقتل عثمان – تملأ أذهان الأمويين، وتوجه مشاعرهم وانفعالاتهم، وتقف خلف مواقفهم في كل الأحداث التالية.

فالوليد بن عقبة حين يعلم بتخوف معاوية من لقاء "علي" في صفين وتردده، يلومه ويستثير حماسته، حين يقول له[1]:

ألا أبلغ معاوية بن حرب ... فإنك من أخي ثقة مليم

قطعت الدهر كالسدم المعنى ... تهذر في دمشق فما تريم[2]

وليس أخو الترات بمن توانى ... ولكن طالب الترة الغشوم

ولو كنت القتيل وكان حياً ... لحرد، لا ألف، ولا سئوم[3]

ولا نكل عن الأوتار حتى ... يبئ بها، ولا برم جثوم

وقومك بالمدينة، قد أبيروا ... فهم صرعى كأنهم الهشيم

ويجد معاوية بن سفيان في مقتل عثمان الفرصة التي طالما انتظرها سانحة، فلا يتوانى في الإمساك بها، فيجمع من حوله قبائل الشام التي ظل يغدق عليهم المال، ويتألفهم طيلة مدة ولايته لعهد عمر وعثمان، بل إنه يشتري مساندة "عمرو بن العاص"[4] بأن تكون مصر خالصة له إذا ما انتهى الأمر إليه.

ومن هذا المنطلق، يرفض معاوية بيعة علي، ويعلن المطالبة بدم عثمان، ويكتب إلى علي قائلاً: "أما بعد؛ فإني إنما أقاتلك على دم عثمان، ولم أر المداهنة في أمره، وإسلام حقه، فإن أدرك

---

(١) تاريخ الطبري، جـ٢/٢٥٨.

(٢) السدم: المشغول بالأمر المهتم به.

(٣) الحرد: القصد في غير تردد.

(٤) هو عمرو بن العاص بن وائل السهمي القرشي، فاتح مصر، ولد عام ٥٠ق.هـ، وتوفى عام ٤٣هـ (الأعلام، جـ٥/٧٩).

بثأري فيه فذاك ... وإلا فالموت على الحق أجمل من الحياة على الضيم، وإنما مثلي ومثل عثمان كما قال المخارقي[1]:

فمهما تسل على نصرتي السيد، لا تجد لـدى الحـرب بيـت السـيد عنـدي مـذمما

فكتب إليه علي: أما بعد، فإني عارض عليك ما عرض مخارق على بني فالج، حيث قال:

أيا راكبـــاً إمـــا عرضـــت فبلغـــا بـــني فـــالج حيـــث اســـتقر قرارهـــا

هلمـــوا إلينـــا لا تكونـــوا كـــأنكم بلاقـــــع أرض طاعنهـــــا غبارهـــــا

ســـليم بـــن منصـــور أناس أعـــزة وأرضـــــهم أرض كثـــــير وبارهـــــا

فكتب إليه معاوية "إنا لم نزل للحرب قادة" وإنما مثلي ومثلك كما قال أوس بن حجر:

إذا الحرب حلت ساحة الحي أظهرت عيـــوب رجـــال يعجبونـــك في الأمـــن

للحـــرب أقـــوام يحـــامون دونهـــا وكـم قـد تـرى مـن ذي رواء ولا يغـنى[2]

وكان هذا إعلاناً للحرب من جانب معاوية على "علي" وشيعته، وإحباطاً لجهود علي من أجل إقناع معاوية بالانضواء تحت راية الخلافة، وعدم إرواء الفتنة، وبذر الشقاق بين جماعة المسلمين.

أما (علي)، فبعد أن فرغ من القضاء على أطماع المخالفين والمنازعين في البصرة بقيادة طلحة، والزبير، وأشياعهما في موقعة الجمل – تلك الموقعة التي اشتركت فيها السيدة عائشة، وقتل فيها طلحة ثم لحق به الزبير – وجد أن عليه مواجهة معاوية، وإخضاع الشام، وكانت وقعة "صفين" التي اشتد القتال فيها بين جيوش علي وجيوش معاوية، وكاد النصر يتم لعلي ومن حوله، وحينما أدرك معاوية وحليفه عمرو بن العاص ذلك، أمر عمرو: من كان معه مصحف فليرفعه، فارتفعت

(١) مخارق أبو المهنأ بن يحيى الجزار، عاش في العصر الأموي، وتوفى عام ٢٣١هـ (الأعلام جـ٧/ ١٩١).

(٢) يراجع هذه المناظرة في: الأخبار الطوال، الدينوري/ ١٧٨.

المصاحف فوق أسنة الرماح، وتنادوا: أن كتاب الله بيننا وبينكم فخدع أهل العراق (أصحاب علي بذلك، وكفوا عن القتال، على الرغم من أن عليا حذرهم من ذلك.

وهنا، تأتي مسألة التحكيم المشهورة في كتب التاريخ، والتي تقضي بأن يرجع المتحاربون إلى ديارهم، ويتخير كل فريق رجلاً يرضونه، ويؤخذ عليهما العهد بأن يكون كتاب الله هو الفيصل في إنهاء الخلاف بين علي معاوية، ويكون ما انتهيا إليه من حكم الله ملزماً للطرفين.

ولما عرض الأمر، سارع أهل الشام (أصحاب معاوية) بالموافقة عليه، دون أن ينتظروا إعلان علي لرأيه فيه، فاضطر علي إلى الخضوع والنزول إلى ما أرادوا، واختار أهل الشام: عمرو بن العاص ممثلاً لهم في هذه الحكومة، أما أهل العراق (أصحاب علي) فاختاروا أبا موسى الأشعري[1].

ومنذ ذلك اليوم، أدرك علي أنه غير مسموع الكلمة بين رجاله، كما أدرك أن رجاله ليسوا على قلب رجل واحد، كما يراد لأمثالهم في مثل هذا الموقف.

وتنتهي تلك الحكومة بخدعة مبيتة، حين يتفق الطرفان على إيقاف الحرب بين المسلمين، وخلع الرجلين: علي ومعاوية وترك الأمور شورى للمسلمين من جديد.

ويقدم عمر بن العاص أبا موسى الأشعري، مظهراً له الإجلال والإكبار، فيعلن أبو موسى، بطوية حسنة خلع علي، وإذا بعمرو يتقدم بدهائه فيعلن خلع علي، وتثبيت معاوية[2].

---

(١) يراجع في ذلك: واقعة صفين، نصر بن مزاحم، تحقيق: عبد السلام هارون، ج١/٣٧ وما بعدها، الطبعة الثانية، القاهرة ١٣٨٢هـ.

(٢) يرى بعض المؤرخين: أن قصة التحكيم المشهورة باطلة، ولا أصل لها، وأن ما حدث من خلاف بين علي ومعاوية، كان بسبب مطالبة معاوية علياً بدم عثمان، حيث إنه ابن عمه، وولي دمه، وحين رفض علي كان هذا النزاع، فالتحكيم كان من أجل حل هذه القضية المتنازع عليها، لا من أجل اختيار خليفة أو عزله.

يراجع ذلك في: الدولة الأموية، د. علي محمد الصلابي، جـ١/ ١٣٨-١٤٢، ط١، مؤسسة أقراء للنشر والتوزيع والترجمة ٢٠٠٥م.

ولقد كان من نتائج هذا التحكيم: أن انقسم أصحاب علي، فمنهم من بقى إلى جانبه في كل موقف، ينتظر رأيه وأمره، وهؤلاء هم أصول الشيعة، ومنهم من طلب من علي نقض المعاهدة، واستئناف الحرب مع معاوية، والرجوع عن الخطوة التي أصروا هم على قبولها من قبل، ولم يكن ممكناً أن ينقض على أمراً قبله، فرفض إجاباتهم إلى ذلك، وعندئذ خرجوا عليه[١]، وأعملوا سيوفهم في كل من يلقاهم، وظلوا شركة في جنب علي، مما اضطره إلى أن يحاربهم في النهروان[٢]، وينتصر عليهم دون أن يتمكن من القضاء عليهم[٣].

وهكذا تسفر حرب صفين عن أحزاب ثلاثة: الأمويين، والشيعة، والخوارج، ويسفر التحكيم عن الارتفاع بمعاوية إلى مرتبة النظير الرسمي لعلي بن أبي طالب.

ومنذ ذلك التاريخ، ومعاوية يصطنع سبيلاً لا يقول عليه علي، فعلى ضنين بمال المسلمين أن ينفق في غير وجوهه، ويريد أن يسوس الناس سياسة عمر وأبي بكر، ويعلو بالخلق والدين فوق كل غاية .... أما معاوية؟، فيشتري بالمال خلق الناس، وضمائرهم، ودينهم؛ كي يكتسب عوناً، وتعضيداً يقترب به، ولو قيد أنملة، من غايته التي يستعيد بها مجد بني أمية.

وتكون النتيجة: أن يعتاد الناس على الترف والسعة التي يغريهم بها معاوية، وينفروا من الخشونة المعيشية التي يميل بهم علي إليها، ويترتب على ذلك: أن يقل أنصار علي، ويكثر أنصار معاوية المستفيدون من سياسته ومسلكه، وفضلاً على ذلك، فإن شيعة علي أخذوا يشغلون أنفسهم بالحروب الكلامية، والجدل الطويل، والمنازعات الداخلية، واستثارة العصبيات القبلية، ويضاف إلى ذلك كله: محاولات معاوية وبعض خلصائه: إثارة القلاقل والفتن بين شيعة علي، فأصاب هذا كله

(١) وقد سمي هؤلاء بالخوارج؛ لخروجهم على الإمام علي.

(٢) كانت بين علي والخوارج الذين انشقوا عليه بعد قضية التحكيم، وكان ذلك عام ٤٣هـ.

(٣) يراجع: الأخبار الطوال، ٢٠٦-٢١٠.

علياً باليأس والحزن، وجعله يقبل مهادنة معاوية سنة ٥٤٠، بإغماد السيف، وتوقف النزاع، على أن يكون لكل منهما ما تحت يده.

وبعد إقرار المهادنة بينهما، وأخذ معاوية يلقب نفسه بالخلافة في بيت المقدس، وبايعه أهل الشام بذلك، وما هي إلا شهور قليلة حتى اغتيل علي أواخر عام ٥٤٠، عندما ازداد معاوية جرأة، وأحس أن لا منافس له في الخلافة، فلما بويع الحسن بن علي في الكوفة، رأى نجم معاوية صاعداً، ورأى معسكره يضطرب بالفرق والجماعات المتناحرة، فتنازل لمعاوية – كما سبق أن أشرت – شريطة أن يعود الأمر من بعده شورى للمسلمين، كي يختاروا من يرضونه، فقبل معاوية، وأعلن نفسه خليفة للمسلمين عامة، ودخل عاملة الكوفة في ربيع الآخر سنة هـ٤١، واجتمع الناس عليه.

ومن الغريب والعجيب: أن معاوية لم يعد – بعد هذا اليوم – يذكر دم عثمان، ولا يتوعد من اشترك في قتله، فلقد استنفد عطاء تلك الورقة على الوجه الذي أراده.

وبعد أن استقرت الأمور لمعاوية، واعتلى عرش الخلافة، نراه يخطب في أهل المدينة المنورة، مكاشفاً ومصارحاً، بأنه يعلم موقفهم منه، ويدرك أنهم كارهون له، ولولايته، وفي هذا ما فيه من التهديد يقول في خطبته لهم[١]:

"أما بعد، فإني والله ما وليتها بمحبة علمتها منكم، ولا مسرة بولايتي، ولكن جالدتكم بسيفي هذا مجالدة، ولقد رضت لكم نفسي على عمل ابن أبي قحافة، وأردتها على عمل عمر، فنفرت من ذلك نفاراً شديداً، وأردتها على سنيات عثمان فأبت علي، فسلكت بها طريقاً لي ولكم فيه منفعة: مؤاكلة حسنة، ومشاربة جميلة، فإن لم تجدوني خيركم، فإني خير لكم ولاية، والله لا أحمل السيف على من لا سيف له، وإن لم يكن منكم إلا ما يشتفى به القائل بلسانه، فقد جعلت ذلك له دبر

(١) العقد الفريد، لابن عبد ربه الأندلسي ج٤/٨١، ٨٢، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٧٣م.

أذني، وتحت قدمي، وإن لم تجدوني أقوم بحقكم كله فاقبلوا مني بعضه، فإن أتاكم من خير فاقبلوه، فإن السيل إذا جاد أثرى، وإن قل أغنى، وإياكم والفتنة، فإنها تفسد المعيشة، وتكدر النعمة".

بهذه الكلمات، يبدو معاوية وكأنه يقول في داخله بصوت تسمعه الدنيا كلها: هأنذا أحفظ الدرس يا أبا سفيان، وألتزم الوصية الغالية[1]، وكأنه لم يعد يتحرج من أن يقول:

إني ما بذلت من الجهد ما بذلت، وما صبرت على ذلك العناء الشاق هذه السنوات الطويلة، إلا لكي أبلغ غايتي، وأصل إلى هدفي، وهأنذا اليوم أبدأ عصراً، هو عصر بني أمية، الذي سوف ينسى المسلمون فيه عهد أبي بكر، وعمر، وعثمان.

إن معاوية يعلم أن أهل المدينة – مدينة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وموطن الصحابة والتابعين الكرام – كارهون لإمارته، ويعلن أنه سوف يحمل السيف لمن يفكر في حمل السيف، أو يحاول استثارة الفتنة، أما من يجمع غيظه في كلمة، أو يفجر كيده في لعنة، فسوف يمتن عليه معاوية فلا يعاقبه على ذلك، وإنما يبتسم في سخرية.

وهكذا، نرى أنه في ضوء هذا الموقف الصريح، الذي تحدده كلمات "معاوية" في دقة، كانت السياسة التي سلكها الأمويون طيلة خلافتهم، وقد تبلورت في عدة نقاط من أهمها:

١- أن الحزب الأموي، هو الحزب الحاكم، أوتى أهله مقاليد الأمر على المسلمين من الله؛ لأنهم أحق الناس بذلك، ولن يقوى أحد على أن ينازعهم ما أعطاهم الله إياه، ولذلك فطاعتهم حق واجب على الجميع، وهم لذلك يذكرون بالفضل من يؤيد حقهم في الحكم، ويحتج لولايتهم، ويضفى عليها ملامح الشرعية الدينية.

٢- تعتمد سياستهم لرعيتهم على معرفتهم بنوعية تلك الرعية، وميولها تجاه الأسرة الحاكمة، وهي المعرفة التي ذكرها معاوية في كلماته السابقة، ولذلك فهم يغضون الطرف عن من

(١) تراجع: وصية أبي سفيان بن حرب لبني أمية ص٩ من هذا البحث.

يعارضهم باللسان، في محاولة لامتصاص غضبه، واستقطابه إلى جانبهم، أما من يفكر في الخروج عن طاعتهم، ويرفع راية العصيان في وجوههم، فليس له إلا السيف.

٣- يعرف الأمويون أن في معارضيهم جبهات قوية لا يستهان بها، لذلك حرصوا على تكوين جبهات مؤيدة، تشكل من بعض الولاة، والقواد الموثوق في ولائهم، بأن يطلقوا أيديهم في ولاياتهم، ويمنحوهم حق التصرف باسم الخلافة؛ إمعاناً في تخويف بيئات المعارضة البعيدة، وإظهاراً لإحكام قبضة الخلافة عليهم، وهذا ما كان من أمر زياد بن أبيه[١]، والحجاج بن يوسف[٢]، وبشر بن مروان، وآل المهلب، وغيرهم[٣].

٤- استن معاوية بن أبي سفيان فكرة ولاية العهد، حين أخذ البيعة – رضا وغصباً – لابنه يزيد من بعده، متناسياً العهد الذي قطعه مع الحسين بن علي، بترك أمر الخلافة من بعده شورى للمسلمين، وقد وقع ذلك من الأمويين؛ إيماناً منهم بأنه ليس هناك من يصلح لتولى أمر المسلمين سواهم، وتقديراً منهم للجهد الذي بذلوه حتى تم لهم وضع الأمر في نصابه، وتطبيقاً لما أعلنه أول حكامهم من أن سياسة الأمويين تختلف عن سياسة سابقيهم، وقد غطوا ذلك كله بغطاء ديني، وهو تجنب المسلمين الشقاق والخلاف والفتن!!

٥- حرص الأمويون على التذويب البطيء لأحزاب المعارضة، عن طريق بذر الشقاق بينهم، وإغراء بعضهم ببعض وصرف الناس عنهم بضروب المغريات الدنيوية، وعلى رأسها المال والجاه.

---

(١) هو زياد ابن أبيه، ولد عام ١هـ، وهو من الدهاة والقادة الفاتحين والولادة، ألحقه معاوية بنسبه عام ٤٤هـ وولاة البصرة والكوفة وسائر العراق (العقد الفريد، لابن عبد ربه، جـ١/٣١، ط١، دار الإمام علي للطباعة والنشر، القاهرة ٩٢م).

(٢) هو الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفي، قائد داهية سفاك، ولد في الطائف عام ٤٠هـ، ولاه عبد الملك أمر عسكره، ورفع شأنه، حتى توفى عام ٩٥هـ (الأعلام، جـ٢/ ١٦٨).

(٣) يراجع: الدراسات الأدبية، د. عبد العزيز نبوي وآخرين/ ٩، الهلال للطباعة والتجارة – القاهرة ١٩٨٥م.

٦- حرص الأمويون على استغلال العصبيات القبلية المتأصلة في نفس العربي؛ من أجل تحقيق مآربهم، وأغراضهم المختلفة.

٧- لم يتحرج الأمويون من الفخر والاعتزاز بارستقراطيتهم الأموية القرشية، وإظهار التعالي على العرب عامة، والموالي خاصة، مما أغضب الموالي عليهم، وجعلهم يتحملون النصيب الأوفى في تقويض ملكهم.

ولقد كان الشعر – الذي صاحب تكوين هذا الحزب، وهو لم يزل بعد مجرد فكرة في رأس معاوية عندما بلغه خبر مقتل عثمان، وحتى سقوط الخلافة الأموية على أيدي العباسيين وأنصارهم – سجلاً لهذه الملامح، ولساناً لهذه الاتجاهات، وشاهداً على تلك السياسة على نحو ما سنرى – إن شاء الله – بعد قليل.

ثانياً: **حزب الشيعة**:

حزب الشيعة، أو الحزب العلوي هم الذين يرون أن بني هاشم من نسل علي أحق الناس بالخلافة بطريق التسلسل الوراثي، بحيث لا تخرج منهم إلا بوصية.

وفكرة استحقاق علي بالخلافة، نبتت منذ فترة مبكرة، حين رشح بعض الصحابة عليا لتولى شئون الدولة الإسلامية عقب موت الرسول (صلى الله عليه وسلم) مباشرة، مؤيدين وجهة نظرهم بأن أهل بيت الرسول (صلى الله عليه وسلم) أحق الناس بخلافته، وعلى رفيقه منذ بدء الدعوة، وصهره، وأكثر الناس صحبة له، وهو من هو علماً، وفضلاً، وديناً، وسبقاً في الإسلام، ونقاء من الوثنية الجاهلية.

وقد دفع أصحاب هذه الفكرة علياً إلى الخلافة منذ تلك اللحظة، حتى ليروي أن عليا أحس شيئاً من غمط الحق[١] حين بويع بالخلافة، وكان هذا سبباً في تأخره زمناً في تقديم البيعة لأبي بكر[٢].

وكون علي بن أبي طالب أولى بالخلافة، لا تعني أكثر من وجهة نظر اقتنع بها أصحابها، وحاولوا إخراجها إلى حيز التنفيذ كلما سنحت فرصة لذلك.

ولكن الميلاد الحقيقي للشيعة: يرجع إلى ذلك الموقف الذي اختلفت فيه كلمة المسلمين من حول علي يوم التحكيم في "صفين" إذا انقلب عليه بعض جنده، وخرجوا عليه، وأصبحوا أعداء له ولمعاوية معاً، وبدأوه بالحرب، وهؤلاء هم الخوارج، أما الجانب الأكبر من جنده، فقد ترك الأمر له، وأعلن الوقوف بجانبه في كل حال، انطلاقاً من الاقتناع بحكومته، والرضا بإمامته، وهؤلاء هم شيعة علي، أي: أنصاره ومؤيدوه والمخلصون له، وقد شكل وجودهم حزباً رسمياً له نظرياته، وآراؤه، وأفكاره بعد موت علي، وقهر الأمويين لهم، ثم ازداد ولاؤهم، وإحساسهم بمسئوليتهم بعد موت الحسن، واستشهاد الحسين، فشكلوا بذلك أقوى أحزاب المعارضة في مواجهة الأمويين، والعباسيين من بعدهم.

وتمر الأيام تتري، وينضم إلى الشيعة بعض المتطرفين من جماعة اليمنى اليهودي: عبد الله بن سبأ، الذي أسلم في خلافة عثمان، ورأى في الانضمام لهؤلاء فرصة لتحقيق بعض أغراضه المشبوهة، والتي تهدف إلى الكيد الخفي للإسلام، فظهرت المغالات في شعاراته هو وأصحابه، كقوله: بالرجعة، والحق الإلهي للخليفة[٣] مما اضطر عليا إلى نفيه وقتل بعض أصحابه، وحين قتل علي، رفض ابن

(١) غمط الحق: رآه سفهاً وجهلاً (اللسان، جـ٧/٣٦٤، مادة: غمط).

(٢) تاريخ الطبري، جـ٣/٢٠٢.

(٣) يراجع في هذه المسألة: الفرق بين الفرق، عبد القاهر البغدادي/ ٢٢٣، ٢٢٤، دار الآفاق – بيروت ١٩٨٠م.

سبأ الاعتراف بذلك، وإنما زعم أنه صعد إلى السماء، كما صعد عيسى، وأنه سينزل يوماً؛ لمحاسبة أعدائه، وإعادة العدل.

ومع كثرة الخلاف في الرأي، والجدل العقيم، تحولت الشيعة إلى عدة فرق، تركزت في العراق[١] وبعد دخول رجال معاوية الكوفة، أباح لهم سب علي من فوق المنابر، والدعاء لخلفاء بني أمية، الأمر الذي أهاج الشيعة، ودفعهم إلى التعبير عن ثورتهم بطرق شتى، فقبض زياد بن أبيه على زعمائهم سنة ٥١هـ، وأرسلهم إلى دار الخلافة في دمشق، فقتلهم معاوية، إلا من تبرأ أمامه من علي، مما دفع إخوانهم إلى التخفي، ومدارة القوم، وبالتقية، وحصر التشيع في المسائل النظرية دون الثورة على النظام الحاكم[٢].

وظلت الشيعة على هذا الحال، حتى مات معاوية، وتولى ابنه يزيد، وكثرت الأصوات المعارضة في الحجاز والعراق، فراسل الشيعة الحسين بن علي، الذي جاءهم، فوجد جنود عبيد الله ابن زياد[٣] عند كربلاء[٤]، فقتل بأيديهم، وأخذت رأسه إلى يزيد في دمشق سنة ٦١هـ.

وفي سنة ٦٥هـ أول ولاية عبد الملك بن مروان[٥]، تحرك الشيعة بالكوفة، واجتمعت كلمتهم على أنهم كانوا السبب في مقتل شهداء كربلاء، ولذلك عليهم أن يتوبوا من هذا الإثم، ويطلبوا التكفير بالانتقام لهؤلاء الشهداء، فسموا أنفسهم بالتوابين، وجعلوا قيادتهم لسليمان بن صرد الخزاعى

---

(١) من أبرز هذه الفرق: الكيسانية، وولاؤهم لمحمد بن الحنفية، والزيدية، وولاؤهم لزيد بن علي بن الحسين، وهي أكثر اعتدالاً في مبادئها من الكيسانية، فهم لا يقولون بالرجعة، ولا ينتظرون مهدياً.

(٢) ينظر: الكامل، ابن الأثير، جـ٣/٤٧٢، دار صادر – بيروت ١٩٧٥م.

(٣) هو عبيد الله بن زياد بن ظبيان البكري، فاتك من الشجعان، كان مقرباً من عبد الملك بن مروان، وظل علي ولائه للأمويين حتى مات سنة ٧٥هـ (العقد الفريد، لابن عبد ربه، جـ٢/١٦٢).

(٤) مكان بأرض العراق قرب الطف من ضواحي الكوفة، وفيها قتل الحسين بن علي على أيدي الأمويين سنة ٦١هـ.

(٥) هو عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي القرشي، من أعاظم خلفاء بني أمية ودهاتهم، ولد عام ٢٦هـ انتقلت إليه الخلافة بعد موت أبيه، وتوفى عام ٨٦هـ (الأعلام، جـ٤/ ١٦٥).

الذي قتل أمام جيش عبد الملك في "عين الوردة"[١] وهزم التوابون وعادوا ساخطين إلى الكوفة، وأخذت الشيعة تنتقل من سيء إلى أسوأ في أفكارها ومبادئها، حيث وسموا بالمغالاة، والخروج على روح الإسلام السمحة، حتى زعم بعضهم أن "محمد بن الحنفية" ابن علي بن أبي طالب من غير فاطمة الزهراء، والذي جعلوا ولاءهم له بعد الحسين – الذي مات، ثم يرجع بعد موته كي يعيد العدل، ويمحو الجور، وأسماه أنصاره "المهدي المنتظر" بل ذهب بعضهم إلى أن هذا المهدي، معتزل في جبل "رضوى"[٢] حتى يحين الوقت المحدد لعودته، كل ذلك رغم موت الرجل أمام أعينهم، ودفنهم إياه على مرأي من العاهة والخاصة[٣].

وقد سجل شعراء هذه الفرقة كل ملاحمهم في شعر يتصف بصدق العاطفة، وحرارة الانفعال كما سنرى بعد قليل إن شاء الله تعالى ...

ثالثاً: حزب الخوارج:

تقدم القول: بأن أصحاب الإمام علي، انقسموا عليه في يوم "صفين" بسبب التحكيم، وخرج عليه بعضهم، ورفضوا دخول الكوفة معه، أو الانضواء تحت لوائه، بل اعتبروه عدواً مثله كمثل معاوية يجب قتالهما معاً، وأقاموا في قرية "حروراء"[٤]، وهم ينطلقون على أنفسهم "الشراة" أي: الذين باعوا أنفسهم، وحياتهم لله، ولنصرة دينه، أخذاً من قوله – تعالى – "وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي

(١) مكان في أرض الجزيرة – التي تقع بين العراق والشام – إلى الشمال الغربي من صفين، وفيه كانت هزيمة التوابين على أيدي الأمويين سنة ٦٥هـ.

(٢) هو جبل بالمدينة المنورة.

(٣) يراجع: الفرق بين الفرق/ ١٦ وما بعدها.

(٤) قرية بظاهر الكوفة نزل فيها الخوارج الذين خالفوا عليا بن أبي طالب، فنسبوا إليها.

نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ"[١]. وبدأ الخوارج منذ هذه المقاطعة، يستقلون بأنفسهم، ويعملون على إثارة القلاقل والإفساد في الأرض، والاعتداء على كل من لا ينتمي إليهم.

ولعل الذي دفعهم إلى سلوك هذا المنهج: المبالغة في الاعتقاد بأنهم وحدهم الأكفاء، والجديرون بأوصاف المسلمين الحقة، ولذا اندفعوا إلى محاربة كل من لا يرتضي مذهبهم، وبخاصة الأمويون؛ لاغتصابهم الخلافة، وهي ليست من حقهم[٢].

وقد قدم الإمام علي محاولات عديدة لاسترادهم، فأرسل ابن عباس لحوارهم، ثم لقيهم هو، وحاول إقناعهم، ولكنهم أصروا على موقفهم، وطلبوا منه، إن كان يريد استعادتهم، أن يقر بالكفر بكتاب الله، ثم يتوب من ذلك؛ لأنه حكم الرجال في كتاب الله، وبالطبع رفض على هذا، وترك جدالهم، ولكنهم اعتدوا على أصحابه قتلاً وتمزيقاً، فلما أرسل إليهم رسولاً ينصحهم بالكف عن الإفساد في الأرض، قتلوه، فكان حتماً على الإمام علي مواجهتهم، فلقيهم في "النهروان وبدد شمل جيشهم، وقتل منهم عدداً عظيماً، وكان من أثر هذه الواقعة: اغتيال الإمام علي بيد أحدهم[٣].

وفي أول عهد معاوية، خرجت جماعتهم بقيادة فروة بن نوفل الأشجعي ، وهزموا جيش الشام "أنصار معاوية" عند النخيلة(•) فاستعدى معاوية عليهم أهل الكوفة، فهزموهم، ثم تابع عمال الأمويين في العراق التنكيل بهم، حتى آخر أيام بني أمية أيام مروان بن محمد، على أنهم ظلوا يمثلون شوكة مقلقة للدولة الأموية ..... تشغل خلفاءها، وتنال من استقرار ولا يأتها طيلة العصر الأموي.

---

(١) سورة البقرة، آية ٢٠٧.

(٢) يراجع: معالم التاريخ الأدبي في العصرين الأموي والعباسي الأول، د/ حلمي حسن أبو العز/ ٦٥، مكتب الكرنك بدمنهور ١٩٩٢م.

(٣) ينظر تفصيل هذا الأمر في: تاريخ الطبري، جـ٤/ ٤٣ وما بعدها.

(•) قرية تقع قرب الكوفة على حدود الشام.

وتكاد تكون حروبهم متواصلة في عنف، وبأس شديدين ضد الأمويين، وإن لم يغفل عنهم الأمويون، فقد كانوا لهم بالمرصاد، يلاحقونهم في كل مكان، ويطيحون بكل رأس تعلو أمام الأبصار من قادة جيوشهم، وزعماء فرقهم"[1].

وقد تعددت فرق الخوارج، وتوزع نشاطها في أرجاء متبانية من الدولة آنذاك، كالعراق، وإيران، واليمن، والبحرين، والحجاز، وغيرها من البلاد، وكانوا يتوادون ويتراحمون فيما بينهم؛ لشعورهم بأنهم أصحاب غاية ورسالة واحدة، هي: تقوى الله، ويشرعون جميعاً من أجلها سيوفهم.

وكانت أظهر فرقهم: الأزارقة، وهم أتباع نافع بن الأزرق. والنجدات، وهم أتباع نجدة بن عامر الحنفي، والإباضية، وهم أصحاب عبدالله بن إباض التميمي، والصفرية، وهم أصحاب زياد ابن الأصفر.

وكانت كل هذه الفرق تمثل حزباً واحداً في أول الأمر، ثم اختلفت آراؤهم حول بعض الأمور، التي نتجت عن: كثرة الجدل، وطول الحوار، فخرجت الفرق الثلاث الأخيرة عن الأولى، في محاولة الاعتدال، وعدم الأخذ بالشدة التي كانت سمة الأزارقة.

(١) معالم التاريخ الأدبي في العصرين: الأموي والعباسي الأول/ ٦٥.

واتخذت فرقة الخوارج مظهرين أساسيين:

المظهر الديني:

اتضح الموقف الديني للخوارج في أمور عديدة، وتبلور في مظاهر بدت واضحة جلية عندهم، من أهمها: إيمانهم بأن الدين ليس اعتقاداً فحسب، وإنما لا بد أن يصاحب الاعتقاد عمل يبرهن على الإيمان، فمن لا يصدق عمله اعتقاده ويقوم بواجبات الدين كاملة، بحيث يأتمر بأمره، وينتهي بنهيه، فهو كافر مستحق للقتال.

- وواجب المؤمن: رسالة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر بكل ما أوتي من قوة، ولذلك فالجهاد وحرب الكفار أسمى ألوان القربى إلى الله، وأفضل الطاعات.
- كذلك يؤمن الخوارج بأن مرتكب الكبيرة، المجاهر بالمعصية كافر يجب قتاله.
- ويحرص الخوارج على إظهار التمسك بتعاليم القرآن، كما يوحي بها ظاهر آياته، والانصراف – بعد الجهاد – إلى ضروب الطاعات، من: صيام، وصلاة، ودراسة القرآن الكريم، والحديث.
- كما يحرصون على الزهد في كل متاع الدنيا، والميل إلى خشونة العيش، يعينهم على ذلك: أن معظمهم عرب بدو، انصروا عن الحضارة والترف، أو لم يعرفوها من قبل.

والخارجي – بصفة عامة – مخلص لما يعتقد، لا يقبل التنازل عنه، ولا يرضى عنه بديلاً، ويتعصب له تعصباً تاماً في مواجهة كل رأي آخر، أو فكر مخالف[1].

(١) الأدب الأموي ملامح وأعلام، د/ صلاح رزق/٥٠ وما بعدها، مكتبة الآداب – القاهرة ١٩٩٥م.

المظهر السياسي:

ربما كان الموقف السياسي عند الخوارج منطلقا من الموقف الديني العام، فالخوارج لم يتركوا الإمام علي منذ أول الأمر إلا استجابة لموقف ديني يحتمه – من وجهة نظرهم – الالتزام بكتاب الله، والموقف السياسي عندهم يتمثل فيما يأتي:

- أعلن الخوارج أن الخلافة ليست وقفاً على الإمام علي وأبنائه، كما يرى الشيعة، وليست حقاً لبني أمية، كما يذهب إلى ذلك الأمويون وأنصارهم، ولست وقفاً على قريش كما يرى الزبيريون، وإنما هي حق لكل مسلم عربي حر، إذا كان قادراً على قيادة المسلمين، صالحاً لأن يكون القدوة الحسنة لهم جميعاً.

ولما كثر الموالي بين صفوف الخوارج، تخلوا عن شرط الحرية والعروبة، وجعلوا الخلافة حقاً لكل مسلم كفء للنهوض بأعبائها، لا فرق في ذلك بين حر وعبد، عربي وغير عربي.

ولقد كانت هذه المساواة، سبيل إغراء لكثير من الموالي، بإخلاص الجهد، والولاء في صفوف الخوارج، كذلك كانت سبيلاً لامتصاص كبير من العصبيات القبلية المتوارثة بين العربي.

- يتم اختيار الخليفة بالانتخاب الحر من بين ذوى الصلاحية لها.
- من حق الجماعة التي اختارت الخليفة عزله، أو الخروج عليه، إذا ما رأت سبباً لذلك، أو اقتضاه صالح المسلمين، فإذا لم يستجب لذلك، جاز قتله.

وانطلاقاً من هذا، لا تصح بيعة معاوية مطلقاً، ولا علي بعد قبوله التحكيم، ولا عثمان إلا في السنوات الأولى.

أما بيعة أبى بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، فهي البيعة الصحيحة من وجهة نظر الخوارج واعتماداً على الموقف الديني والسياسي معاً، راح الخوارج يحكمون بالفكر على كل من ليس

بخارجي، ومما يروى أنهم كانوا أرفق بالكفار الذين لا يؤمنون بالدين، وبأهل الكتاب من المسلمين المخالفين لهم في الولاء والرأي.

وأبرز ما كان يميزهم: تلقائية الاستجابة لما يفرضه عليهم اعتقادهم الصادق في المواقف المختلفة، وصدق شعورهم، وسلامة طبعهم، وغلبة الطابع العملي عليهم، وفناء أفرادهم في مجموعهم، وحرص كل فرد منهم على أن يكون مثلاً للحماسة والشجاعة، والإخلاص للعقيدة في كل ساحة.

ومن الجدير بالذكر، أن الخوارج الإباضية، مازال لهم وجود رسمي في بعض البلاد العربية والإسلامية حتى الآن، وخاصة في شرقي الجزيرة العربية، ويعد الإباضيون أكثر فرق الخوارج اعتدالاً، فهم لا يكفرون مخالفيهم من المسلمين، ولا يحاربونهم إلا مضطرين بعد الدعوة والحوار، وإقامة الحجة، وإعلان القتال، بل إنهم يصهرون إلى مخالفيهم، ويتوارثون معهم.

ولقد كان أدب الخوارج مصداقاً لكل هذه المنطلقات الفكرية والعقدية، فياضا بحرارة العاطفة، وصدق الشعور مسجلاً لحركتهم الدائبة في مواجهة كل القوى السياسية، والدينية القائمة على امتداد العصر.

رابعاً: الحزب الزبيري:

ينسب هذا الحزب إلى: عبد الله بن الزبير بن العوام[١]، وترجع فكرة الدعوة الأولى له، إلى أيام بيعة علي عقب مقتل عثمان، فلقد كان الزبير بن العوام يطمح في الأمر، أو بعضه لنفسه، فنقض بيعته لعلي، ورحل مع طلحة بن عبيد الله إلى مكة، وضما إليهما السيد عائشة[٢]، وخرجوا يتبعهم بعض أنصارهم إلى البصرة، وأعلنوا رفض البيعة لعلي، والمطالبة بدم عثمان أولاً، وكان عبد الله ابن الزبير معهم في ذلك، بل كان أكثرهم حماسة إلى مناهضة علي، وربما كان يطمح إلى الخلافة، خاصة بعد أن رشحته السيدة عائشة للصلاة بالناس طيلة الرحلة من مكة إلى البصرة[٣] فلما كان وقعة الجمل، ومقتل الزبير، وطلحة، وعودة السيدة عائشة إلى المدينة، خمدت الفكرة في رأس عبد الله، وافتقد الأنصار، فعاش خاملاً مقهوراً أيام النزاع بين علي ومعاوية، ثم إنه عندما آل الأمر إلى معاوية، حرص على مشاركته حروب أعدائه وفتوحاته، بعد أن أغدق عليه معاوية موفور المال، وأشعره بسمو منزلته، ولعل في هذا الطريق وسيلة للحصول على الخلافة بعد معاوية، لذلك لم يحتمل الأمر حين رأى معاوية يستخلف ولده يزيد من بعده، فأعلن الرفض، ولكن معاوية اضطره إلى البيعة.

---

(١) هو عبد الله بن الزبير بن العوام القرشي الأسدي، أول مولود في المدينة بعد الهجرة، شهد فتح إفريقيا في زمن عثمان، وبويع له بالخلافة سنة ٦٤هـ، عقب موت يزيد بن معاوية، وتوفى سنة ٧٣هـ (الأعلام جـ٤/ ٨٧).

(٢) هي عائشة بنت أبي بكر الصديق، ولدت عام ٩ ق.هـ، أفقه نساء المسلمين وأعلمهن بالدين والأدب، تزوجها النبي (ص) في السنة الثانية بعد الهجرة، وروت عنه أحاديث كثيرة، وتوفيت في المدينة المنورة عام ٥٨هـ (العقد الفريد، لابن عبد ربه، جـ١/١٢٥).

(٣) يراجع: تاريخ الطبري، ج٥/١٦٥.

وبمجرد أن مات معاوية، نقض عبد الله وأنصاره البيعة ليزيد، وانتقل إلى مكة، وعاذ بالحرم، فلما بلغه مقتل الحسين وأرسل له أهل المدينة أن ليس للأمر من بعد الحسين سواه، أعلن الثورة على الأمويين، ونهض يدعو لنفسه بالخلافة سنة ٦١هـ[١].

وثار أهل المدينة كذلك على عثمان بن محمد بن أبي سفيان والي يزيد عليهم، وطردوه وطردوا معه من بالمدينة من بني أمية[٢]، ولما بلغ يزيد بن معاوية ذلك، أعد جيشاً للانتقام، وأرسله إلى المدينة بقايدة مسلم بن عقبة المري، وكانت وقعة الحرة سنة ٦٣هـ، التي كانت أبشع اعتداء على مدينة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وحرمة صحابته، حيث أبيحت ثلاثة أيام لجيش يزيد بن معاوية، ثم اتجه جيش مسلم إلى مكة لإخضاع ابن الزبير، وفي طريقه إلى مكة مات مسلم بن عقبة، فخلفه الحصين بن نمير السكوني، الذي حاصر مكة، ورمى الكعبة بالنيران والحجارة، فتهدمت أركانها، ثم بلغه موت يزيد، ففك الحصار، وعاد إلى الشام[٣].

وخلف يزيد ابنه معاوية، فزهد في الخلافة، وتنازل عنها بعد أقل من شهرين، واختلط الأمر على الأمويين، فليس فيهم من يصلح للخلافة، أو يرجوها.

وكانت هذه هي الفرصة المناسبة لرواج ابن الزبير، فأعلن نفسه خليفة، وأخذ البيعة من أصحابه، ودانت له الحجاز كلها وتبعها العراق، ومصر، واليمن، وأكثر جهات الشام، وكادت الشام، تدين له كلها بالولاء، لولا أن مروان بن الحكم – الذي بويع بالخلافة بالشام – جمع

(١) تراجع: البداية للحافظين كثير، تخريج وتحقيق/ أحمد جاد، ج٤، جزء ٢٣٢/٨، دار الحديث القاهرة ٢٠٠٤م.

(٢) يراجع: تاريخ الطبري، ج٦/ ١٩٤.

(٣) السابق، ج٧/٥-١٤، ١٠٢.

أصحابه، ولقي الضحاك بن قيس الفهري – قائد جيش ابن الزبير ووالیه على الشام – وتمكن من هزيمته في "مرج راهط"[1] سنة ٦٤-٦٥هـ[2].

وظل ابن الزبير مشغولاً بتأمين الأمصار المختلفة، وتوفير الاستقرار لها في مواجهة جبهات مختلفة، يعنيه في ذلك أخوه مصعب، ومرت سنوات قلائل، واستطاع عبد الملك بن مروان، الذي ولى الخلافة بعد موت أبيه، أن يجهز جيوشه، ويخرج للقاء مصعب في العراق، ويبدد شمل أنصاره، ويعيد العراق إلى شمل الأمويين.

ثم أرسل عبد الملك عامله وقائده المشهور "الحجاج بن يوسف الثقفي" لحرب عبد الله بن الزبير في مكة، فحاصرها أكثر من ثمانية أشهر، وقذف الكعبة بالنيران فاحترقت، عندئذ طلب أهل مكة الأمان لأنفسهم، وتخلوا عن ابن الزبير، الذي استبسل في قلة من أهله وأصحابه الأوفياء حتى قتل سنة ٧٣هـ على يد الحجاج بن يوسف، وأرسلت رأسه إلى عبد الملك، ففرح بذلك، وأمر بصلب جثته عند الحجون[3].

بعد ذلك، دانت مكة والحجاز للأمويين من جديد، وبهذه النهاية انتهى الحزب الزبيري، الذي لم يتح له الوقت، لكي يكون أنصاره نظرية فكرية يحملها أنصارهم وخلفاؤهم من بعدهم[4].

---

(١) مكان معروف الشام على بعد أميال من دمشق، وفيه التقى جيش مروان بن الحكم بابن الزبير، وهزمه شر هزيمة في نهاية عام ٦٤هـ، وقيل: في بداية عام ٦٥هـ.

(٢) تراجع: البداية والنهاية، جـ٤، جزء ٢٣٤/٨.

(٣) راجع: البداية والنهاية، جـ٤/ جزء ٣١٧/٨. والحجون: بفتح الحاء: موضع بمكة حذاء المسجد.

(٤) راجع: الأخبار الطوال/ ٣٠٤.

وكان عبد الله بن الزبير يستند في طلبه الخلافة إلى عدة أمور، تجدر الإشارة إليها، منها:

- أنه كان يرى أن الخلافة حقاً لقريش، ينالها منهم أكفؤهم، ولم يكن هناك من هو أكفأ منه بعد موت معاوية بن يزيد بن معاوية، كما كانت الظروف مواتية على نحو لم يتوفر له أيام موت عثمان أو علي.
- أنه كان يشعر – في داخله – بنوع من السمو الذي يرقى به فوق معاوية، والبيت الأموي عامة، فهو ابن الزبير بن العوام، حواري رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، الذي خاض معه بدراً، وسائر الغزوات، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الستة الذين حصر عمر الخلافة فيهم بعد طعنه.
- أنه يتصل برسول الله (صلى الله عليه وسلم) بصلة قربى من طرق شتى؛ فأبوه ابن صفية بنت عبد المطلب، عمة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وجده لأبيه أخو خديجة أم المؤمنين، وأمه أسماء بنت أبي بكر، وخالته عائشة أم المؤمنين، التي كانت تدعوه ابنها، وتعده لطالب المعالي.
- أن الرأي العام، لم يكن يميل إلى الأمويين، خاصة بعد قتلهم الحسين في كربلاء، واستباحتهم حرمات المدينة، واعتدائهم على البيت الحرام، واستبدادهم بالأمر، وتتبعهم لبني هاشم في تعنت وقسوة.

- أنه كان – في ذلك الوقت – شيخاً جاوز الستين، معروفاً بالتقوى، والزهد، والتحرج الديني، ولا جدال في رجحان كفته كفة معاوية بن يزيد الذي شاع عنه اللهو والمجون.

وهكذا، انتهى الحزب الزبيري بنهاية ابن الزبيري، ولم يبق منه إلا شعر شعرائه، والذي سوف ندرسه مع شعر بقية الأحزاب في الصفحات القادمة إن شاء الله تعالى ...

الفصل الثاني

الاتجاهات الموضوعية للشعر السياسي في العصر الأموي

أولاً: شعر الأمويين وأبرز أغراضه:

يقصد بالشعر السياسي: ذلك اللون الفني الذي تولد من الأحداث السياسية، والتكتلات الحزبية المنطلقة إلى الحكم، والراغبة في الوصول إليه، منذ بدايات النصف الثاني من القرن الأول الهجري، وعلى وجه التحديد: منذ أعلن معاوية إسناد أمر الخلافة من بعده إلى ابنه يزيد، حيث تحزبت الدولة، وبدأ لكل حزب أنصاره، ومؤيدوه من الشعراء وغيرهم.

وسوف نتعرف على شعر وشعراء هذه الأحزاب، ونقف على أهم المضامين والاتجاهات التي تغياها كل حزب، من خلال ما سوف نعرضه من نماذج شعرية له في هذا المقام.

وفيما يخص شعر الحزب الأموي، نقول: إنه صحب النشأة السياسية الأولى لهذا للحزب، على نحو ما رأينا في نعى الحجاج بن خزيمة عثمان إلى معاوية – وربما كان شعر الحجاج، وشعر معاوية في ذلك الوقت، ثم شعر الوليد بن عقبة في اتهام بني هاشم بقتل عثمان، ورفض البيعة لعلي، وإعلان الحرب عليه – هو أول شعر سياسي يناصر الأمويين، ويؤسس دعواهم، ثم ظل الشعر يصحبهم في حروبهم ومنازعاتهم، حتى آل الأمر لمعاوية.

ومنذ ذلك الحين، تعددت مناحي القول من الشعر المناصر لبني أمية، والمحتج لخلافتهم، حتى غدا صدى لأفكارهم، وسجلاً لتاريخهم، وصورة لملامح سياستهم في مختلف الجوانب، وتعددت مضامينه واتجاهاته، وكان منه ما يلي:

١- الاحتجاج للخلافة والخلفاء:

شيء طبعي أن يجتمع شعراء بني أمية على تأييد الأمويين، ومناصرتهم في جل آرائهم، سواء ما يتصل منها بالشأن السياسي أو غيره.

ومن هذا المنطلق، رأينا "أبا العباس الأعمى"[١] يمدح الأمويين – وكان من خاصة شعرائهم – بأنهم سموا عن النظير فلا شبيه لهم في رجاحة العقل، وحسن السياسة، ووفرة الخير ..... ولقد كان هذا سبباً في أن اختصهم الله بأمر المسلمين، على الرغم من حقد المعارضين، الذين لم يكن لصوتهم أن يسمع لولا حلم الأمويين عليهم، فيقول[٢]:

أبـــنى أميـــة لا أرى لكـــم ... شـــبهاً، إذا مـــا التفـــت الشـــيع
ســـعة وأحـــلام إذا نزعـــت ... أهتـــل الحلـــوم فضـــرها النـــزع
الله أعطـــاكم، وإن رغمـــت ... مـــن ذاك أنـــف معاشـــر رفعـــوا
أبـــنى أميـــة غـــير أنكـــم ... والنـــاس فيمـــا أطمعـــوا طمعـــوا
أطمعـــتم فـــيكم عـــدوكم ... فمـــا بهـــم في ذاكـــم الطمـــع

ويرى شاعر آخر، وهو الأخطل[٣]، أن الله فضل الأمويين على من سواهم، واختصهم بالسيادة؛ لأنهم أهل لذلك، وليس كذلك من يضع نفسه موضع المقارنة بهم، فيقول في هذا المعنى[٤]:

تمـــت جـــدودهم والله فضـــلهم ... وجـــد قـــوم ســـواهم خامـــل نكـــد

---

(١) شاعر أموي الهوى والمنزع، عاش أيامه في رحاب بني أمية، يمدحهم ويغدقون له العطاء.

(٢) الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني، جـ١٥/٦٠، طبعة دار الشعب، القاهرة ١٩٦٩م، ولأبيات من الكامل.

(٣) هو غياث بن غوث بن الصلت بن طارقة التغلبي، أموي المنزع والهوى، ولد عام ١٩هـ، وتوفى عام ٩٠هـ (الأعلام، جـ٥/ ١٢٣).

(٤) ديوان الأخطل، تحقيق: فخر الدين قباوة/ ١٧٢، الطبعة الثانية، دار الآفاق، بيروت ١٩٧٩م، والأبيات من البسيط.

ويـــوم صـــفين والأبصـــار خاشـــعة أمـــدهم – إذ دعـــوا – مـــن ربهـــم مـــدد

وأنـــتم أهـــل بيـــت لا يـــوازنهم بيـــت إذا عـــدت الأحســـاب والعـــدد

وهو يؤكد هذه المعاني، ويزيدها مبالغة حين يمدح عبد الملك بن مروان، بقوله[١]:

إلى إمـــــام تغادينـــــا فواضـــــله أظفـــــره الله فليهنـــــا لـــــه الظفـــــر

الخـــائض الغمـــر واليمـــون طـــائرة خليفـــة الله يستســـقى بـــه المطـــر

والمســـتمر بـــه أمـــر الجميـــع فمـــا يغـــتره بعـــد توكيـــد لـــه غـــرر

أعطـــاهم الله جـــدا ينصـــرون بـــه لا جـــد إلا صـــغير بعـــد محتقـــر

ولأن الشعراء المعارضين للحزب الأموي، كانوا دائماً يذهبون إلى أن الأمويين ليسوا أحق بالخلافة، بل ليسوا أهلاً لها مطلقاً، فإن الاحتجاج لهم كان يأتي أشبه برد الفعل التأثري لتلك الدعاوى، أو الدفاع في مواجهة ذلك الهجوم.

يبدو ذلك في قول نابغة بني شيبان[٢]، إذ يقول[٣]:

معشـــر معـــدن الخلافـــة فـــيهم بـــدؤها مـــنهم وفـــيهم تحـــور

لا يـــرومن ملكهـــم آدمـــي إن مـــن رام ملكهـــم مغـــرور

كما تبدو النغمة نفسها في قول "العجاج"[٤] الذي يقرن الاحتجاج بمدح الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، الذي اختاره الله لهذا الأمر، يقول في ذلك[١]:

---

(١) السابق/ ٩٨، والأبيات من البسيط.

(٢) هو عبد الله بن المخارق بن سليم بن حضيرة بن قيس، شاعر بدوي من بني شيبان، اتصل بالخلفاء الأمويين ومدحهم، وتوفى سنة ١٥٢هـ (الأعلام جـ٤/ ١٣٦).

(٣) ديوان نابغة بني شيبان/ ١٢٣، ط١، مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٢م، والأبيات من الخفيف.

(٤) عبد الله بن رؤية بن لبيد بن صخر السعدي التميمي، راجز مجيد، ولد في الجاهلية، ثم أسلم، وتوفى عام ٩٠هـ (الأعلام جـ٤/ ٨٦).

فـــالأرض لله ولاهـــا خليفتـــه وصـــاحب الله فيهـــا غـــير مغلـــوب

بعـد الفسـاد الـذي قـد كـان قـام بـه كـــذاب مكـــة عـــن مكـــر وتخريـــب

والنـاس في فتنـة عميـاء قـد تركـت أشـــرافهم بـــين مقتـــول ومحـــروب

دعـوا ليســتخلف الــرحمن خــيرهم والله يســمع دعــوى كــل مكــروب

فأصـــبح الله ولي الأمـــر خـــيرهم بعـد اخـتلاع وصـدع غـير مشـعوب

تـراث عثمـان كـانوا الأوليـاء بـه سـربال ملـك علـيهم غـير مسـلوب

ولما كان الشاعر الأموي – المحتج للخلافة الأموية والخليفة – مدركاً لتميز خصوم الأمويين عليهم، فيما يتعلق بالورع، والتقوى، والسبق في الإسلام، وما يتعلق بذلك من مقومات الروح الدينية، نجده يوجه عنايته إلى هذه الأمور، ويركز على تأكيدها في حق خلفاء بني أمية، باعتبارها سبيل جدارتهم، ورسوخ الملك فيهم .....

يقول النابغة الشيباني في مدح يزيد بن عبد الملك[٢]:

أعطـى الحلـم والعفـاف مـع الجـو د، ورأيا يفـــــوق رأي الرجـــــال

وحبـــاه المليـــك تقـــوى وبـــراً وهـــو مـــن ســـوس ناســـك وصـــال

يقطـــع الليـــل آهـــة وانتحـــاباً وابتهـــــــالاً لله أي ابتهـــــــال

تارة راكعـــاً وطـــوراً ســـجوداً ذا دمـــــوع تنهـــل أي انهـــلال

عـــادل مســـقط وميـــزان حـــق لم يحـــف في قضـــائه للمـــوالي

محســـن مجمـــل تقـــي قـــوى وهـــو أهـــل الإحســـان والإجمـــال

ونلحظ أن شعراء الحزب الأموي، كانوا يفرطون – أحيانا – في الادعاء، ويمعنون في المبالغة، حتى لتأتي أوصافهم أبعد ما تكون عن حقيقة الموصوفين.

---

(١) الديوان/ ٢٥، والأبيات من البسيط.

(٢) ديوان نابغة بني شيبان/ ٦٨، والأبيات من الخفيف.

من ذلك ما جاء عند "حارثة بن بدر الغداني"[١] في مدح "زياد بن أبية" أول من بطش بالهاشميين من أبناء علي وصحبه، يقول[٢]:

ألا مـــن مبلـــغ عـــنى زياداً	**فـــنعم أخـــو الخليفـــة والأمـــير**
فأنـــت إمـــام معدلـــة وقصـــد	**وحـــزم حـــين تحضـــرك الأمـــور**
أخـــو خليفـــة الله بـــن حـــرب	**وأنـــت وزيـــره ... نعـــم الـــوزير**
بأمـــر الله منصـــور معـــان	**إذا جـــار الرعيـــة لا تجـــور**
وكنـــت حيـــاً وجئـــت علـــى زمـــان	**خبيـــث ظـــاهر فيـــه شـــرور**
فلـــم قـــام ســـيف الله فـــيهم	**زياد قـــام أبلـــج مســـتنير**

وقد تصل هذه المبالغة – أحياناً – إلى أن يكون الكلام غير مقبول لدى الذوق العام، كما جاء في قول الفرزدق[٣] يمدح يزيد بن عبد الملك[٤].

ولـو كـان بعـد المصـطفى مـن عبـاده	**نـــبي لهـــم مـــنهم لأمـــر العـــزائم**
لكنـــت الـــذي يختـــاره الله بعـــده	**لحمـــل الأمـــانات الثقـــال العظـــائم**
ورثـــتم – خليـــل الله – كـــل خزانـــة	**وكـــل كتـــاب بالنبـــوة قـــائم**
وحبلـــك حبـــل الله مـــن يعتصـــم بـــه	**إذا نالـــه يأخـــذ بـــه حبـــل ســـالم**

وهكذا، يشعر من يقرأ هذه النماذج القليلة المأخوذة من جم غفير من الأشعار التي قيل في الأمويين – أن خير الأمة مقرون بخلافة بني أمية، فهي خلافة مستقرة، ينعم الناس – على اختلاف

---

(١) هو حارثة بن بدر بن حصين التميمي الغداني، تابعي من أهل البصرة، أموي المنزع والهوى، توفى سنة ٦٤هـ (الأعلام، جـ٢/ ١٥٨).

(٢) تنظر الأبيات في: تاريخ الطبري، جـ٤/ ١٦٨، ١٦٩، والأبيات من الوافر.

(٣) هو همام بن غالب بن صعصعة التميمي الدرامي، من أهل البصرة النبلاء، اتصل بالخلفاء الأمويين ومدحهم، وتوفى سنة ١١٠هـ (الأعلام، جـ٨/ ١٩٣).

(٤) ديوان الفرزدق، جمع وتعليق: عبد الله إسماعيل الصاوي، جـ٢/ ٢٩٨، مطبعة الصاوي ١٩٣٦م، والأبيات من الطويل.

أصولهم – في ظلها بالاستقرار والسعة وقد اختص الله بها خلفاء هم أهل حزم، ودين، وبر، وورع، يسهرون على راحة الرعية، ويعرفون واجباتهم تجاهها، ولذا لا تصح الخلافة إلا بهم، ولا تجوز في غيرهم، ولا يصح أمر المسلمين إلا في ظل رجالاتها من بني أمية، ولأجل هذا استحقوا عون الله وتأييده وسداده، وليذهب الحاقدون والرافضون والمنافسون لهم إلى الجحيم.

ونلحظ، أن الشعراء الأمويين كانوا يقومون بدور الجهاز الإعلامي المدرك للتكوين النفسي والاجتماعي للمتلقين، لذا أمعنوا في الإلحاح والتكرار لمفاهيم معينة؛ رغبة في ترسيخها، وتأكيدها، وإحلالها محل غيرها، على نحو لا يستطيع الناس الفرار منها، أو الانشغال بغيرها ولعل هذا هو السر في ارتفاع النبرة الخطابية في شعر الأمويين.

٢– مواجهة المعارضة:

منذ اليوم الذي أعلن فيه معاوية بن أبي سفيان نفسه خليفة للمسلمين عامة، وهو يعلم ما في نفوس المعارضين من كراهية لبني أمية، وعدم الرضا بخلافتهم، لذلك كان حريصاً على مواجهتهم بكل الوسائل الممكنة، والتي كان من بينها: شعر الشعراء المؤيدين، وقد أوعز إلى الشعراء بالرد على خصوم بني أمية ومعارضيهم، وشجعهم على هذا الأمر.

ومن ذلك قول "كعب بن جعيل التغلبي"[١] مصوراً التفاف أهل الشام حول معاوية وإصرارهم على رفض الانضمام إلى مبايعي علي[٢].

أرى الشام تكره ملك العراق وأهل العراق لهم كارهينا

وكلا لصاحبه مبغضاً يرى كل ما كان من ذاك دينا

(١) هو كعب بن جعيل بن قمير بن عجرة التغلبي، شاعر مشهور، مدح الأمويين، ولزم بلاطهم، توفى نحو عام ٥٥هـ (الأعلام جـ٥/٢٢٥).

(٢) الأخبار الطوال/ ١٧٠، والأبيات من المتقارب.

إذا مـــا رمـــونا رميـنـــاهم ودناهـــم مثـــل مـــا يقرضـــونا

وقـــالوا: علـــى إمـــام لنـــا فقلنـــا: رضـــينا ابـــن هنـــد رضـــينا

وقـــالوا: نـــرى أن تـــدينوا لـــه فقلنـــا لهـــم: لا نـــرى أن نـــدينا

ومـــن دون ذلـــك خـــرط القتـــاد وضـــرب وطعـــن يقـــر العيـــونا

ويقول أعشى همدان[١] مباركاً ظفر الحجاج بأهل الفتنة من شيعة العراق، ذاكراً أن الله أعان الأمويين، ونصرهم عليهم[٢]:

أبى الله إلا أن يـــتمم نـــوره ويطفـــئ نـــور الفاســـقين فيخمـــدا

ويظهـــر أهـــل الحـــق في كـــل مـــوطن ويعـــدل وقـــع الســـيف مـــن كـــان أصـــيدا[٣]

وينـــزل ذل بالعـــراق وأهلـــه لمـــا نقضـــوا العهـــد الوثيـــق المؤكـــدا

ومـــا أحـــدثوا مـــن بدعـــة وعظيمـــة مـــن القـــول لم تصـــعد إلى الله مصـــعدا

ومـــا نكثـــوا مـــن بيعـــة بعـــد بيعـــة إذا ضـــمنوها اليـــوم، خاســـوا بهـــا غـــداً

فـــلا صـــدق في قـــول ولا صـــبر عنـــدهم ولكـــن فخـــراً فـــيهم وتزيـــداً

فكيـــف رأيـــت الله فـــرق جمعهـــم ومـــزقهم عـــرض الـــبلاد وشـــردا

وعلى شاكلته نجد قول "أعشى ربيعة[٤] مشجعاً عبد الملك بن مروان على قتال ابن الزبير، حين دخل عليه مرة فوجده متردداً في الخروج إليه ومحاربته[٥]:

---

(١) هو عبد الرحمن بن عبد الله بن الحارث بن نظام بن جشم الهمداني، كان من شعراء الدولة الأموية، ثم انحاز إلى ابن الأشعث الخارجي، فضرب الحجاج عنقه سنة ٨٣هـ (الأعلام جـ٣/٣١٢).

(٢) تاريخ الأمم والملوك، جـ٨/٣٢، والأبيات من الطويل.

(٣) الأصيد: هو المتكبر.

(٤) هو عبد الله بن خارجه بن حبيب بن أبي ربيعة بن ذهل، شاعر إسلامي، من ساكني الكوفة، كان شديد التعصب لبني أمية، توفى عام ٩٢هـ (العقد الفريد، لابن عبد ربه، جـ١/ ٣٣٩).

(٥) الأغاني، للأصفهاني، جـ١٦/١٦٣، والأبيات من الكامل.

آل الـــزبير مـــن الخلافـــة كـــالتي ... عجـــل النتـــاج بحملهـــا فأحالهـــا

أوكـا لضـعاف مـن الحمولـة حملـت ... مـــالا تطيـــق فضـــيعت أحمالهـــا

قومـــوا إلـــيهم، لا تنـــاموا عـــنهم ... كـــم للغـــواة أطلـــتم إمهالهـــا

إن الخلافـــة فـــيكم لا فـــيهم ... مـــازلتم أركانهـــا وثمالهـــا[1]

أمســوا علــى الخــيرات قفــلا مغلقــاً ... فـــانهض بيمنـــك فـــافتتح أقفالهـــا

فضحك عبد الملك بن مروان، وقال: صدقت يا أبا عبد الله، إن أبا خبيب لقفل دون كل خير، ولا نتأخر عن مناجزته إن شاء الله[2].

ولقد بلغت الرغبة من شعراء بني أمية في الرد على الخصوم والمعارضين لهم حد التزيد والتكلف الممجوج، وذلك حين اصطنعوا فكرة المهدي، أو السفياني المنتظر؛ رداً على فكرة المهدي المنتظر التي أشاعها الشيعة ومن ذلك قول الفرزدق سليمان بن عبد الملك[3]:

أنـــت الـــذي نعـــت الكتـــاب لنـــا ... في ناطـــــق التـــــورة والزبـــــر

كـــم كـــان مـــن قـــس يخـــبرنا ... بخلافـــــة المهـــــدي أو حـــــبر

جعـــل الإلـــه لنـــا خلافتـــه ... بـــرء الجـــروح وعصـــمة الجـــبر

كـــم حـــل عنـــا عـــدل ســـنته ... مـــن مغـــرم ثقـــل ومـــن إصـــر

وهكذا، حرص منبر الشعر الأموي، على إرضاء الخلافة، وإظهار الهمة العالية في مواجهة خصومهم، حتى وإن جاءت أشعارهم في هذا الشأن، واضحة التكلف، شديدة التعمل.

---

(١) الشمال: الغياث الذي يقوم بأمر جماعته، وهي مثل كتاب وزناً.

(٢) ينظر: تاريخ آداب اللغة العربي، جورجي زيدان، جـ١/ ١٦٣.

(٣) ديوان الفرزدق/ ٣٧٣، والأبيات من الكامل.

٣- مناصرة الولادة والقواد:

ألمحت – سابقاً – إلى أن خلفاء بني أمية، قد أطلقوا أيدي بعض الولاة والقواد المخلصين فيما تحت أيديهم، ومنحوهم حق التصرف باسم الخلافة؛ رغبة في تكوين جبهات المعارضة القوية، ومن هنا برزت أسماء هؤلاء الولاة، وشاعت أفعالهم وعلت منزلتهم، واستهوت قصورهم الشعراء المعجبين بهم، والطالبين لعطاياهم، شأنهم – في ذلك – شأن الخلفاء في دمشق.

ولقد احتلت شخصية "الحجاج بن يوسف الثقفي" والي العراق من قبل الخليفة عبد الملك بن مروان حيزاً متفرداً في هذا الشأن، ومن هنا تعددت وقفات الشعراء أمام تلك الشخصية، وأمام إنجازاتها المتميزة في خدمة الخلافة الأموية، وقهر خصومها، وتشتيت معارضيها.

وها هو ذا "جرير"[١] يشيد بدور الحجاج في تتبع المناوئين، والقضاء على اللصوص وقطاع الطرق، حتى شاع الأمن والعدل بين الناس، وذلك حين يقول[٢]:

من سد مطلع النفاق عليكم ... أم من يصول كصولة الحجاج

أم من يغار على النساء حفيظة ... إذ لا يثقن بغيرة الأزواج

إن ابن يوسف فاعلموا وتيقنوا ... ماضي العزيمة واضح المنهاج

ماض على الغمرات يمضى همه ... والليل مختلف الطرائق داجي

منع الرشاد وأراكم سبل الهدى ... واللص تكله عن الإدلاج

وإذا رأيت منافقين تخيروا ... سبل الضجاج أقمت كل ضجاج

دوايتهم وشفيتهم من محنة ... غبراء ذات دواخن وأجاج

---

(١) هو جرير بن عطية بن حذيفة الخطفي بن بدر الكليبي اليربوعي التميمي، ولد في اليمامة عام ٢٨هـ، ونزع نحو الأمويين فمدحهم، ونال عطاياهم، توفى سنة ١١٠هـ (الأعلام، جـ٢/ ١١٩).

(٢) ديوان جرير، تحقيق: نعمان محمد أمين/ ٩٠، ط٢، دار المعارف ١٩٨٦م، والأبيات من الكامل.

فقد وصف الوالي بما كان الخليفة أهلاً له، إذ لم يبق الحجاج على منافذ النفاق، كما أنه شجاع غيور على العرض، نافذ الهمة، واضح السياسة، يعرف الخلاص من الشدائد، وقد مكنه ذلك من توفير العدل والأمان، وهو لا تأخذه الشفقة بالمنافقين واللصوص، ومن يعيثون في الأرض فساداً، فقد أمنت السبل بوجوده، وشفيت الأمة من داء المفسدين.

ومن المفارقات، أن تغضب هذه القصيدة عبد الملك بن مروان؛ حيث مدح واليه بما يجب أن يمدح به هو، لذا يروي أنه قال لجرير: لقد هممت أن أطير بك طيرة بطيئاً سقوطها، مما جعل محمد ابن الحجاج، وجريراً يلاطفانه، ويسترضيانه، حتى عفا عنه(١).

وإذا كان الحجاج قد مدح بالشدة والحزم عند منازلة الخارجين على الدولة، فإن "حبيب بن عوف"(٢) يمدح "المهلب بن أبي صفرة"(٣) حين وفق في تشتيت الخوارج، ويحمد له حكمته في التعامل معهم، وذلك في قوله(٤):

أبا سـعيد جـزاك الله صـالحة فقـد كفيـت، ولم تعنـف علـى أحـد

دوايت بالحلم أهل الجهل فانقسموا وكنـت كوالـد الحـاني علـى الولـد

ولعل إسهام الشعراء في هذا المقام، كان أحد أسباب غرور القواد وصلفهم، التي دفعتهم إلى مجاوزة الحدود في الإحساس بذواتهم، وتقدير أهميتهم بالنسبة للخلافة، على نحو ما حدث

---

(١) يراجع: معالم التاريخ الأدبي في العصرين الأموي والعباسي الأول/ ٤٢.

(٢) هو حبيب بن عمرو بن عوف الأوسى القحطاني، أحد جنود المهلب بن أبى صفرة (الأعلام جـ٢/ ١٦٦).

(٣) هو أبو سعيد المهلب بن أبى صفرة، ولد عام ٧هـ، وولى إمارة البصرة، وهو أموي المنزع، حارب الأزارقة زمناً طويلاً، حتى تم له الظفر عليهم، ولاه عبد الملك بن مروان ولاية خراسان، وظل فيها حتى سنة ٨٣هـ (يراجع: العقد الفريد، جـ١/ ١٣١).

(٤) تهذيب الكامل، جـ١/٢١٥، والأبيات من البسيط.

للمهلب بن أبي صفرة الذي صرف عن ولاية الأهواز[١]، وكان عليه لبيت المال مليون درهم، ومثل خالد القسري، الذي كان يأخذ خلسة ثمانية مليون درهم فوق راتبه.

ومن العجب: أن هؤلاء الولاة لم يكتفوا بسرقة أموال بيت مال المسلمين، وإنما تجاوزوا ذلك إلى فرض ضرائب استثنائية كانوا يغالون فيها، ويشتدون في طلبها، ويعذبون من يتأخر عن دفعها لفقره أو عجزه، وهو ما أوقفه "عمر بن عبد العزيز"[٢] حين تولى الخلافة، وكان مما كتبه إلى عامله في خراسان: إن الله بعث محمداً داعياً، ولم يبعثه جابياً"[٣].

٤- وراثة الملك وولاية العهد:

معاوية بن أبي سفيان أول من ابتدع فكرة ولاية العهد، وتوريث الخلافة، وما كاد يفعل، ويعرب عن رغبته فيه حتى وجد من الشعراء من يبارك الفكرة، ويدعوا لها، بل يحاول أن يضفى عليها سمات الشرعية الدينية.

ولقد كان "مسكين الدارمي"[٤] أول من انبرى لتأييد معاوية في دعوته لمبايعته ولده يزيد، وانتقال الخلافة إليه من بعده.

ويقال: إن معاوية كان قد أوعز إليه، أن يقترح أمر هذه البيعة؛ ليعلم الرأي في ذلك، فقال مسكين في ذلك[٥]:

---

(١) الأهواز: بلد يجمع سبع كور، وهي كورة الأهواز، وكورة جنود يسابور، وكورة السوس، وكورة سرق، وكورة نهريين، وكورة نهر تيري، تيري، وكورة مناذر (معجم ما استعجم، جـ١/٢٠٦).

(٢) هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي القرشي، ولد عام ٦١هـ، وهو أحد خلفاء الدولة الأموية بالشام، اشتهر بالعدل والزهد، وتوفى عام ١٠١هـ (الأعلام جـ٥/٥٠).

(٣) الدراسات الأدبية، د/ عبد الرحمن وآخرين/ ٩.

(٤) هو ربيعة بن عامر بن أنيف بن شريح الدارمي التميمي، شاعر عراقي شجاع، أموي الهوى، توفى عام ٨٩هـ (الأعلام جـ٣/١٦).

(٥) الأغاني، ج٨/ ٧١، والأبيات من الطويل.

بـــنى خلفـــاء الله مهـــلاً فإنمـــا ... يبوئهـــا الـــرحمن حيـــث يريـــد

إذا المنـــبر الغـــربي خـــلاه ربـــه ... فـــإن أمـــير المـــؤمنين يزيـــد

فـلا زلـت أعلـى النـاس كعبـاً ولا تـزل ... وفـــود تســـاميها إليـــك وفـــود

ولا زال بيـــت الملـــك فوقـــك عاليـــاً ... تشـــيد أطنـــاب لـــه وعمـــود

قـــدور ابـــن حـــرب كـــالجوابي وتحتهـــا ... أثافٍ كأمثـــال الـــرنال ركـــود

ويقال: إن معاوية حين أتم الشاعر إنشاده، قال: ننظر فيما قلت يا مسكين، ونستخير الله – وحين يموت رأس الدولة (معاوية) ويتولى يزيد الخلافة، ينظم الشاعر الأموي "عبد الله بن همام السلولي"[1] قصيدة في رثاء معاوية الأكبر، ويحض يزيد على البيعة لابنه معاوية الثاني، فيقول[2]:

اصـــبر يزيـــد فقـــد فارقـــت ذامقـــة ... واشـــكر حبـــاء الـــذي بالملـــك حـــاباك

لارزء أعظـــم في الأقـــوام نعلمـــه ... كمـــا رزئـــت، ولا عقـــبى كعقبـــاك

أصـبحت راعـى أهـل الـدين كلهـم ... فأنـــت ترعـــاهم والله يرعـــاك

وفي معاويـــة البـــاقي لنـــا خلـــف ... إذا نعيـــت، ولا نســـمع بمنعـــاك

وحين أراد عبد الملك بن مروان أخذ البيعة لابنه الوليد، وتنحية أخيه عبد العزيز عنها، وجد من الشعراء ترويجاً وعوناً، يقول نابغة بنى شيبان محتجاً لذلك[3]:

لابنـــك أولى بملـــك والـــده ... ونجـــم مـــن قـــد عصـــاك مطـــرح

داود عـــدل فـــاحكم بســـنته ... ثم ابـــن حـــرب فـــإنهم نصـــحوا

وكذلك حاول الوليد بن عبد الملك أن يأخذها لابنه عبد العزيز دون أخيه سليمان، وحاول سليمان تولية ابنه "أيوب" العهد وحرمان يزيد الذي كان الأمر معقوداً له من بعده.

---

(١) وهو عبد الله بن همام بن نبيشة بن رياح السلولي، من مرة بن صعصعة أموي الهوى، توفى عام ١٠٠هـ (الأعلام جـ٤/١٤٣).

(٢) طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي، ت: محمود شاكر/ ٥٢٤، طبعة المدني ١٩٧٤م، والأبيات من البسيط.

(٣) ديوان نابغة بني شيبان/ ٦٨، والأبيات من البسيط.

وهكذا، كان الشعر يزين للخلفاء الفعل، حتى حين يكون مجافياً للروح الإسلامية، وكان الشعراء يجتهدون في إقناع الرأي العام بسلامة التصرف، وتميز الحكمة فيه، حتى ليرسخ في أذهان الجميع أن صلاح شئونهم رهن به.

٥- إثارة العصبيات القبلية:

من الخطط التي ابتدعها ابن أبي سفيان في بداية عهده: إغراء بعض القبائل ببعض، وإثارة العصبيات القبلية والصراع الداخلي، حتى تعلو كلمته كلمة الجميع، وتخبو كل الأصوات أمام صوته.

ومما يروى: أن الأخطل التغلبي، كان عند الملك بن مروان، وكان عنده كذلك بعض سادة قيس، فأنشده الأخطل في حضرتهم مدحاً يفخر فيه بانتصارات الأمويين وأتباعهم من القبائل اليمنية على قبائل قيس المناصرة لا بن الزبير في مرج راهط، وكان مما قاله على مسمع من الجحاف[١] زعيم القيسية آنذاك قوله[٢]:

ألا سائل الجحاف هل هو ثائر ... بقتلى أصيبت من سليم وعامر

أجحاف إن نهبط عليك فتلتقي ... عليك بحور طاميات زواخر

تكن مثل أبداء الحباب الذي جرى ... به البحر تزهاه الرياح الصراصر

فوثب الجحاف يجر طرفه، وما يعلم أحد مقدار ما به من الغيظ والغضب، وهو يقول:

نعم، سوف نبكهم بكل مهند ... ونبكي عميراً بالرماح الخواطر

---

(١) هو الجحاف بن حكيم السلمى، ثائر وشاعر، كان معاصراً لعبد الملك بن مروان الذي أهدر دمه، فهرب إلى الروم، ثم أمنه الوليد بعد موت عبد الملك، توفى سنة ٩٠هـ (العقد الفريد، جـ١/١٣٦).

(٢) ينظر الخبر في: الأغاني، جـ١١/٦٠، والأبيات التي جاءت في الحوار من بحر الطويل.

ثم جمع جموعه من قيس، وأغاروا على تغلب في مساكنهم، فقتلوهم، ومثلوا بهم، وذلك هو يوم "البشر"[1] الذي يقول فيه الأخطل:

لقـد أوقـع الجحـاف بالبشـر وقعـة إلى الله منهـــا المشـــتكي والمعـــول

ثانياً: شعر الشيعة وأبرز أغراضه:

سبق أن ذكرت أن الشيعة: هم الداعون بعدم أحقية الخلافة لغير بني هاشم، ومن نسل علي ابن أبي طالب، بطريق التسلسل الوراثي، بحيث لا تخرج منهم إلا بوصية[2].

وذكرت – كذلك – أن الشبعة من أقدم الأحزاب السياسية نشأة في الإسلام، وأن أصحابه كانوا يصدرون في آرائهم عن اقتناع شخصي بوجهة نظرهم، ومن ثم كانوا يدافعون عنها بحماسة واضحة، ويدفعهم إلى التمسك بها: إيمان لا يتزعزع، واعتقد لا ينال منه قهر أو إحباط.

وكان من بينهم عدد من الشعراء، الذين جعلوا من شعرهم صوتاً قوياً، يعلن عن الاحتجاج لفكر الشيعة وآرائهم، والوقوف في وجه خصومهم، وتصوير حبهم لآل البيت، وتسجيل مواقفهم مع معارضيهم، ورثاء شهدائهم الذين وقعوا صرعى في حومات الوغي، مما يشهد بكثرة شعرهم، وتعدد مضامينه، والتي منها ما يلي:

١- التغني بصفات آل البيت ولوم خاذليهم:

وضع الشيعة عدة شروط، ينبغي توافرها في الإمام، وهي: أنه هاشمي، عالم، زاهد، تقي، شجاع، كريم، وجواد، وقد حرص شعراؤهم على ترديد هذه الصفات، ونسبتها إلى أئمتهم.

ومن ذلك ما جاء على لسان الكميت الأسدي[1]:

---

(١) البشر: اسم ماء لبني تغلب (اللسان، جـ٤/٦٣).

(٢) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة، حياة محمد جبريل، جـ٢/ ٢٢٧، ط١، الجامعة الإسلامية ٢٠٠٢م.

الحمـــاة الكمـــاة في الحـــرب إن ... لـــف ضـــراماً وقودهـــا بضـــرام

والغيـــوث الـــذين إن أمحـــل النـــاس ... فمـــــأوى حواضـــــن الأيتـــــام

غـــالبيين هـــاشميين في العلـــم ... ربـــوا مـــن عطيـــة العـــلام

وهـــم الآخـــذون مـــن ثقـــة الأمـــر ... بتقـــواهم عـــرى لا انفصـــام[٢]

وهذا "أيمن بن خذام الأسدي" الشاعر المتشيع لعلي وبني هاشم، ويمدح الهاشميين، ويبدى مقارنة قاسية بينهم وبين الأمويين، فيقول لبني هاشم[٣].

نهـــاركم مكابـــدة وصـــوم ... ولـــيلكم صـــلاة واقـــتراء

أأجعلكـــم وأقوامـــاً ســـواء ... وبيـــنكم وبيـــنهم الهـــواء

وهـــم أرض لأرجلكـــم وأنـــتم ... لأعيـــنهم وأرؤســـهم سمـــاء

ولما كان أهل البيت بهذا الفضل، وتلك المنزلة، كانوا أولى بالنصرة والدفاع عنهم، لذا يشعر جل شعرائهم بالألم وتأنيب الضمير؛ لخذلانهم في مختلف المواقف التي كان يجب على الجميع نصرتهم فيها، والوقوف إلى جانبهم.

ولعل خذلان "الحسين" والتخلي عنه حتى قتل مع خيرة أصحابه، وأهله شر قتلة، كان من أبرز المواقف، وأعمقها أثراً في نفوسهم.

ومن ذلك ما جاء عند أبي الأسود الدؤلي[٤] في قوله[١]:

---

(١) الكميت بن زيد بن خنس الأسدي، شاعر الهاشميين، من أهل الكوفة، ولد عام ٦٠هـ، وتوفى عام ١٢٦هـ (الأعلام، جـ٥/٢٣٣).

(٢) القصائد الهاشميات، الكميت بن زيد الأسدي/٢، بيروت ١٩٧٢م. والأبيات من الخفيف.

(٣) الأغاني، للأصفهاني، جـ٢١/٦، والأبيات من الوافر.

(٤) هو ظالم بن عمرو بن سفيان بن جندل الدؤلي الكناني، ولد عام ١ ق.هـ، وهو من التابعين، اتصل بعلي بن أبي طالب، ثم اتصل بمعاوية، ومات عام ٦٩هـ (الأعلام، جـ٣/ ٢٣٦).

مـاذا تقولـون إن قـال النـبي لكـم ... مـــاذا فعلـــتم وأنـــتم آخـــر الأمـــم

بعـــترتي وبأهلـــي بعـــد مفتقـــدي ... مـــنهم أســـاري وقتلـــى ضـــرجوا بـــدم

هل كان هذا جزائي إذ نصحت لكم ... أن تخلفـــوني بســـوءٍ في ذوى رحمـــى؟

وفي هذا الجانب أشعار كثيرة ومتنوعة، يعجز الباحث عن حصرها، أو الإحاطة بها.

٢- مواجهة الخصوم:

حين رفع معاوية بن أبي سفيان راية العصيان في مواجهة الإمام علي، ورفض البيعة، وأعلن الحرب، وجدنا شاعره "كعب بن جعيل" يعلن رضا الشاميين بخلافة معاوية، ورفضهم البيعة لعلي، وقد رد عليه "النجاشي بن الحارث"[٢] بقصيدة منها[٣]:

دعـــن يا معـــاوى مـــا لـــن يكـــونا ... فقـــــد حقـــــق الله مـــــا تحـــــذرونا

أتاكـــم علـــى بأهـــل العـــراق ... وأهـــل الحجـــاز فمـــا تصـــنعونا؟

علـــى كـــل جـــرداء خيفانـــة ... وأشـــعث نهـــد يســـر العيـــونا

عليهـــا فـــوارس تحســـبهم ... كاســـد العـــربن حمـــين العرينـــا

يـــرون الطعـــان خـــلال العجـــاج ... وضـــرب القـــوانس في النقـــع دينـــا

هـــم هزمـــوا الجمـــع جمـــع الـــزبير ... وطلحـــــة والمعشـــــر والناكثينـــــا

وقـــالوا يمينـــا علـــى حلفـــة ... ولنهـــدى إلى الشـــام حـــرباً زبـــونا

تشـــيب النواصـــي قبـــل المشـــيب ... وتلقـــى الحوامـــل منهـــا الجنينـــا

---

(١) مناقب آل أبي طالب، لأبي جعفر محمد بن علي السروي، تحقيق د. يوسف البقاعي، جـ٣/٢٦٢، الطبعة الثانية، دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ١٩٩١م، والأبيات من البسيط.

(٢) هو قيس بن عمرو بن مالك، أصله من اليمن، واستقر في الكوفة، ومدح معاوية، وتوفى عام ٤٠هـ (الأعلام، جـ٥/٢٠٧).

(٣) تهذيب الكامل، ج١/٤١، والأبيات من المتقارب.

فالشاعر – كما نرى – يشيد بقوة العلويين، ويرسم لهم صورة تخيف خصومهم من الأمويين، وتلقى بالرعب في قلوبهم كما أنها تحمل بين أعطافها تهديداً يقذف به الشاعر في وجوه القوم، فسوف يواجهون من العلويين يوما عبوساً قمطريراً، تشيب منه النواصي، وتلقى من خطره كل ذات حمل حملها.

ويقول الكميت في بني أمية[١]:

فقل لبني أمية حيث حلوا ... وإن خفت المهند والقطيعا

ألا أف لدهر كنت فيه ... هداناً خاضاً لكم مطيعاً[٢]

أجاع الله من أشبعتموه ... وأشبع من بجوركم أجيعا

بمرضى السياسة هاشمى ... يكون حياً لأمته ربيعاً

وليثا في المشاهد غير نكس[٣] ... لتقويم البرية مستطيعاً

ولم تقف مواجهة العلويين لخصومهم من الأمويين فقط، وإنما امتدت إلى غيرهم، فهذا هو الكميت، يضيق بمسلك الخوارج، وإباحتهم الحرمات، فيشيد بموقف علي معهم يوم النهروان، ويتمنى أن يرويه الله من دمائهم، فيقول[٤]:

إني أدين بما دان الوصي به ... يوم النخيلة من قتل المحلينا[٥]

وبالذي دام يوم النهر دنت به ... وشاركت كفه كفى بصفينا

تلك الدماء معاً يارب في عنقي ... ومثلها فاسقني ..... آمين آمينا

---

(١) الهاشميات/٣، والأبيات من الوافر.

(٢) الهدان: الجبان الرعديد.

(٣) النكس: هو الجبان الضعيف.

(٤) تهذيب الكامل، ج١/٨٦، والأبيات من البسيط.

(٥) الوصى: هو الإمام علي. والمحلين: هم الخوارج.

وهكذا، نجد الشاعر الشيعي ينطلق – غالباً – من تجارب يعاينها، ومواقف يواجهها، ومنطلق يصدق دفاعه عنه، وانطلاقه منه، فيتحدد في ضوء ذلك الخصم، وتتحدد كذلك طبيعة المواجهة.

٣- حب آل البيت:

منذ عهد البعثة المحمدية، وحب آل بيت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يملك على الناس قلوبهم، ويحل منها موضع القبول والرضا، ولكن هذا الحب تحول عند الشيعة إلى مذهب خاص، واعتقاد له مبرراته في وجه أعدائهم وخصومهم، الذين سلبوهم حقوقهم في وراثة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وخلافته في أمر المسلمين.

يقول أبو الأسود الدؤلي[١]:

بنـــوعم النـــبي وأقربـــوه أحـــب النـــاس كلهـــم إليـــا
فـــإن يـــك حـــبهم رشـــداً أصـــبه ولســـت بمخطـــئ إن كـــان غيـــا
همـــو أهـــل النصـــيحة مـــن لـــدن وأهـــل مـــودتي مادمـــت حيـــا
رأيـــت الله خـــالق كـــل شـــيء هـــداهم واجتـــبى مـــنهم نبيـــاً
همـــو آســـوا رســـول الله حـــتى تربـــع أمـــره أمـــراً قـــوياً
وأقوامـــاً أجـــابوا الله خوفـــاً لـــه، لا يعلـــون لـــه سميـــا[٢]

(١) ديوان أبي الأسود الدؤلي، تحقيق: عبد الكريم الدجيلي/ ١٧٦، بغداد ١٣٧٣م، والأبيات من الوافر.

(٢) كلمة (أقواماً) منصوبة عطفاً على كلمة (نبياً) في البيت قبل السابق.

ويقول الشاعر "حرب بن المنذر بن الجارود" متغنياً بحب آل البيت[1]:

فحسبي من الدنيا كفاف يقيمني وأثواب كتان أزور بها قبري

وحبي ذوى قربي النبي محمد فماسا لنا إلا المودة من أجر

ومع أن شعراء الشيعة كان لها دور كبير، في إثارة مشاعر الشفقة والحب لآل البيت، والدعوة إلى الثورة على بنى أمية، غير أنه لم تظهر لهم سوى بعض الانتقاضات الفردية القليلة، وغير المؤثرة أمام بطش الحكام آنذاك، بينما ظلت الكثرة منهم تذرف الدموع، ولا ترغب في إشراع السيوف؛ مفضلين التقية؛ مخافة أن ينكل بهم، فتنقطع آمالهم وآمال الناس فيهم.

٤- رثاء قتلاهم:

في ظل الحكم الأموي عانى الشيعة من الألم والمرار، فقد اشتدت قسوة الحكام الأمويين وقادتهم عليهم في مختلف المواقف، فكثر سقوط القتلى منهم، وكان الأحياء يرثون هؤلاء الشهداء الذين وقعوا صرعى في حومات القتال رثاء قوياً، تتجسد فيه اللوعة والحزن، والإحساس بالقهر والظلم، مع كون الحق الضعيف إلى جانبهم، والباطل الغشوم مع خصومهم.

وسوف نورد بعض النماذج في هذا الشأن، وهي نماذج – كما سنرى – تدل على مبلغ الظلم والغيظ الذي عانى منه الشيعة في ظل الخلافة الأموية.

يقول "سليمان بن قتة"[2] في رثاء الحسين[3]:

مررت على أبيات آل محمد فلم أرها كعهدها يوم حلت

وكانوا رجاء ثم صاروا رزية وقد عظمت تلك الرزايا وجلت

---

(١) البيان والتبيين، جـ٣/ ٣٦٥، والأبيات من الطويل.

(٢) سليمان بن قتة شاعر عاش في العصر الأموي، وكان يدين بحب الهاشميين، وله فيهم أشعار كثيرة.

(٣) مقاتل الطالبيين، لأبي الفرج الأصبهاني، تحقيق: السيد أحمد صقر/ ١٢١، دار المعارف بيروت، والأبيات من الطويل.

ألم تـر أن الشـمس أضـحت مريضـة ... لفقـــد حســـين والـــبلاد اقشـــعرت

وقـد أعولـت تبكـي السـماء لفقـده ... وأنجمهـــا ناحـــت عليـــه وصـــلت

فـــلا يبعـــد الله الـــديار وأهلهـــا ... وإن أصـــبحت مـــنهم برغمـــى تخلـــت

فـإن قتيـل الطـف[1] مـن آل هاشـم ... أذل رقـــاب المســـلمين فـــذلت

وفي شعر الخوارج، يختلط رثاء الشهداء نبرة التخويف، والإنذار بالانتقام من قاتليهم، ومن ذلك ما ورد في قول "المفضل المطلبي" في رثاء زيد بن علي بن الحسن[2]:

ألا يا عـــين لا ترقـــى وجـــودي ... بـــدمعك لـــيس ذا حـــين الجمـــود

وكيـــف تضـــن بالعـــبرات عيـــني ... وتطمـــع بعـــد زيـــد في الهجـــود

وكيـــف لهـــا الرقـــاد ترائـــي ... جيـــاد الخيـــل تعـــدو بالأســـود

بأيـــديهم صـــفائح مرهفـــات ... صـــوارم، أخلصـــت مـــن عهـــد هـــود

بهـــا نســـقى النفـــوس إذا التقينـــا ... ونقتـــل كـــل جبـــار عنيـــد

ونحكـــم في بـــنى الحكـــم العـــوالي ... ونجعلهـــم بهـــا مثـــل الحصـــيد

ولم يقف رثاء الشيعة عند الأئمة الكبار منهم فحسب، وإنما جاءت عديد من مرثياتهم في قوادهم ورجالاتهم، ومن ذلك ما جاء من رثاء "عبدالله بن خليفة الطائي" لحجر بن عدي وأصحابه الذين قتلهم معاوية في "مرج عذراء" لعدم تبرئهم من علي[3]:

فـدع عنـك تـذكار الشـباب وفقـده ... وأســـآره إذا بان منـــك فأقصـــرا

وبـــك علـــى الخـــلان لمـــا تخرمـــوا ... ولم يجـدوا عـن منهـل المـوت مصـدرا

ومـــا كنـــت أهـــوى بعـــدهم مـــتعللا ... بشـــيء مـــن الـــدنيا ولا أن أعمـــرا

---

(١) الطف: مكان بالعراق قريب من الكوفة.

(٢) السابق نفسه/ ١٤٩، والأبيات من الوافر.

(٣) يرجع إلى الأبيات في: تاريخ الطبري، جـ٦/١٥٨، ١٥٩، والأبيات من الطويل.

فيها حجر من للخيل يدمى نحورها ... وللملك المغرى إذا ما تغشمرا؟
ومن صادع بالحق بعدك ناطق ... بتقوى، ومن إذا قيل بالجور غيرا
فنعم أخو الإسلام كنت وإنني ... لأطمع أن تؤتي الخلود وتحبرا
وقد كنت تعطي السيف في الحرب حقه ... وتعرف معروفاً، وتنكر منكراً

٥- المهدية والرجعية:

تعد فكرة المهدي المنتظر، ورجوعه كي يملأ الأرض عدلاً، ويرد الحق المسلوب إلى أصحابه: من أبرز معتقدات الشيعة وخاصة الغلاة منهم (الرافضة)، وهم يقصدون بالمهدي المنتظر كما سبق أن أشرت: محمد بن الحنفية[١]، وهو الإمام الثاني عشر عندهم، ويطلقون عليه الحجة، كما يطلقون عليه القائم، ولا زال الشيعة الرافضة يزورونه في سرداب "سر من رأى" ويدعونه للخروج، ولهم فيه خرافات وأساطير كبيرة لا يصدقها عاقل[٢]:

وقد عبر شعراء الشيعة عن هذا المعتقد في كثير من أشعارهم، كما جاء ذلك عند كثير عزة[٣] (شاعر الكيسانية الأول) وذلك في قوله[٤]:

ألا إن الأئمة من قريش ... ولاة الحق أربعة سواء
على والثلاثة من بنيه ... هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط إيمان وبر ... وسبط غيبته كربلاء

(١) هو محمد بن علي بن طالب الهاشمي القرشي، المعروف بابن الحنفية، ولد عام ٢١هـ، وهو أحد الأبطال الأشداء في صدر الإسلام، كان واسع العلم ورعا، توفى في المدينة عام ٨١هـ (العقد الفريد، جـ٢/٣٥٢).

(٢) يراجع: أسمى المطالب في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، د. علي محمد الصلابي/ ٦٧٨، ٦٧٩، مكتبة فياض للتجارة والتوزيع – المنصورة ٢٠٠٧م.

(٣) هو كثير بن عبد الرحمن بن الأسود بن عامر الخزاعي، من أهل المدينة، وكان مقيماً في مصر، توفى عام ١٠٥هـ (الأعلام، جـ٥/ ٢٠١٩).

(٤) الأغاني، جـ٨/٣١، والأبيات من بحر الوافر التام.

وسـيط لا يـذوق المـوت حـتى يقـود الخيـل يتبعهـا اللـواء

تغيـب لا يـرى فـيهم زمـاناً برضـوى عنـده عسـل ومـاء

فالشاعر يبدأ كلامه بإثبات الخلافة للعلويين، ثم يشير إلى أن "محمد بن الحنفية" لم يمت، وإنما تغيب عن الناس في جبل رضوى، حتى يحين وقت رجعته .....

وهو قول يجسد فكرة الشيعة الذي استقر في أعماق شعرائهم، ونضحت به أشعارهم، يقول أحد شعرائهم "وهو السيد الحميري"[1] سائراً على الدرب نفسه[2]:

ألا قـل للوصـي: فـدتك نفسـي أطلـت بـذلك الجبـل المقامـا

ألا حـي المقـيم بشـعب رضـوى وأهـد لـه بمنزلـه السـلاما

أضـر بمعشـر والـوك منـا وسمـوك الخليفـة والإمامـا

وعـادوا فيـك أهـل الأرض طـراً مغيبـك عـنهم سـبعين عامـا[3]

لقـد أمسـى بمـورق شـعب رضـوى تراجعـه الملائكـة الكلامـا

ومـا ذاق ابـن خولـة طعـم مـوت ولا وارت لـه أرض عظـام

---

(١) هو إسماعيل بن محمد بن يزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميري، هاشمي الهوى، ولد عام ١٠٥هـ، وتوفى عام ١٧٣هـ (الأعلام، جـ١/٣٢٢).

(٢) الأغاني، جـ١، ٣١. والأبيات من الوافر التام.

(٣) مغيبك: فاعل الفعل أضر في البيت السابق.

ثالثاً: شعر الخوارج وأبرز أغراضه:

تعد فرقة الخوارج من أكثر الأحزاب السياسية ديمقراطية، وأشدهم اعتزازاً بالرأي، وفناء في المبدأ، ولم يتخلوا عن ذلك أو يلينوا فيه منذ ابتداء أمرهم يوم صفين، وحتى نهايتهم، كل ذلك على الرغم من تعدد فرقهم، واختلاف آرائهم فيما بينهم، وهذا ما يسجله شعرهم، الذي يفيض حماسة وصدقاً في التعبير عن تلك الروح المتميزة.

وبالنظر الدقيق في شعر الخوارج، نجده يتوزع داخل عدة موضوعات أو مضامين، والتي منها ما يلي:

١- التقوى والزهد:

كثرت المظلومات الشعرية التي نظمها شعراء الخوارج في التقوى والزهد كثرة هائلة؛ تجسيداً لمواقفهم الفكرية والعقدية، وإن كان المطلع على صفاتهم، وبعض آرائهم الاعتقادية، سرعان ما يزهد فيهم؛ لكثرة خلطهم وغلطهم[١].

ومما ورد في وصف الخوارج، وتصوير تقواهم ما جاء عند "الطرماح بن حكيم"[٢] في قوله[٣]:

لله در الشـــــــــراة إنهـــــــــم ... إذا الكـــرى مـــال بالطـــلا أرقـــوا[٤]

يرجعـــــون الحنـــــين آونـــــة ... وإن عـــــلا ســـــاعة بهـــم شـــهقوا

---

(١) يراجع: أسمى المطالب في سيرة علي بن أبي طالب/ ٥٠٩، وما بعدها.

(٢) هو الطرماح بن حكيم بن الحكم، من طيئ، شاعر إسلامي فحل، ولد في الشام، وكان خارجي الهوى، توفى نحو ١٢٥هـ، (الأعلام، جـ٣/٢٢٥).

(٣) ديوان الطرماح بن حكيم، تحقيق د. عزة حسن/ ٥٧٨، دمشق ١٩٥٦م، والأبيات من مجزوء البسيط.

(٤) الطلا: الأعناق، والكرى: النوم.

خوفـــا تبيـــت القلـــوب واجفـــة ... تكـــاد عنهـــا الصـــدور تنفلـــق

قـــوم شـــحاح علـــى اعتقـــادهم ... بالفـــوز ممـــا يخـــاف قـــد وثقـــوا

ويسير على الدرب نفسه شاعرهم "عمرو بن الحصين"[١] حين يحاول تقديم باقة من صفاتهم في هذا النص، إذ يقول[٢]:

متـــأهلون لكـــل صـــالحة ... ناهـــون مـــن لاقـــوا عـــن النكـــر

صـــمت إذا احتضـــروا مجالســـهم ... وزن لقـــول خطيـــبهم وقـــر

متـــأوهون كـــأن جمـــر غضـــاً ... للخـــوف بـــين ضـــلوعهم يســـرى

تلقـــــاهم ألاء كـــــأنهم ... لخشـــوعهم صـــدروا عـــن الحشـــر[٣]

فهـــم كـــان بهـــم جـــوى مـــرض ... أو مســـهم طـــرف مـــن الســـحر

لا لـــيلهم ليـــل فيلبســـهم ... فيـــه غواشـــى النـــوم بالســـكر

إذا كـــذا خلســـاً وآونـــة ... حـــذر العقـــاب وهـــم علـــى ذعـــر

---

(١) هو عمران بن الحصين بن عبيد، من علماء الصحابة، أسلم عام خبير، وتوفى بالبصرة عام ٥٢هـ (الأعلام جـه/ ٧٠).

(٢) ديوان شعر الخوارج، تحقيق الدكتور/ إحسان عباس/ ٢٤٧، ٢٤٨، دار الشروق ١٩٨٢م، والأبيات من الكامل.

(٣) أل يئل ألا وأليلاً بمعنى: أن، وحن، ورفع صوته بالدعاء (اللسان، ج١١/٢٣ مادة ألل).

٢- الشجاعة وطلب الموت:

الخوارج من أكثر الناس شجاعة وإقداماً في الحرب، تعبيراً وتجسيداً لفنائهم في سبيل عقيدتهم، وقد كان "قطرى بن الفجاءة"[١] فارس الجماعة، وأمير جماعتهم، مقداماً، يطلب الموت في كل لقاء، ومن شعره الذي يتعجل به الشهادة ويتعجب من أخطاء الموت إياه، مع كثرة طلبه، وشدة رغبته فيه يقول[٢]:

إلى كم تعاديني السيوف ولا أرى ... مضاربها تهدى إلى حماميا

ولو قرب الموت القراع لقد أنى ... لموتى أن يدنو لطول قراعيا

أغادى جلاد المعلمين كأنني ... على العسل الماذي أصبح غاديا

وأدعو الكماة للنزال إذا القنا ... تحطم فيما بيننا من طعانيا

ولست أرى نفسا تموت وإن دنت ... من الموت حتى يبعث الله داعياً

إذا استلهب الخوف الرجال قلوبهم ... حبسنا على الموت النفوس الغواليا

وهناك ظاهرة واضحة في شعر الخوارج، وهي استبسالهم في الجهاد، ورغبتهم الأكيدة في الموت، لاسيما حين يتذكرون إخوانهم الذين سبقوهم إلى الشهادة.

---

(١) هو قطري بن الفجاءة بن مازن بن يزيد الكناني المازني التميمي، خارجي الهوى والمنزع، وكان من رؤساء الأزارقة، توفى عام ٧٨هـ (الأعلام، جـ٥، ٢٠٠٠).

(٢) لباب الآداب، مجد الدين أسامة بن منقذ، تحقيق أحمد شاكر/ ٢٢٤، ٢٢٥، ط٢، مكتبة السنة، القاهرة ١٩٨٧م، والأبيات من الطويل.

ومن ذلك قول شاعرهم "أبو بلال مرداس بن أدية"[١] بعد مقتل عبد الله بن وهب الراسبي[٢]:

أبعد ابن وهب ذي النزاهة والتقى ... ومن خاض في تلك الحروب المهالكا

أحب بقاء أو أرجى سلامة ... وقد قتلوا زيد بن حصن ومالكا

فيا رب سلم نيتي وبصيرتي ... وهب لي التقى حتى ألاقى أولئكا[٣]

وعادة ما تقترن الشجاعة بالأقدام، وطلب الموت؛ تجسيداً للموقف العقدي الذي يؤمن به الخارجي، ويمضى مدفوعاً إليه لا يلوى على شيء.

ومن ذلك ما جاء عند "الرهين المرادي"[٤] في قوله[٥]:

يا نفس قد طال في الدنيا مرواغتي ... لا تأمنن لصرف الدهر تنغيصاً

إني بائع ما يفنى لباقية ... إن لم يعقني رجاء العيش تربيصا[٦]

وأسأل الله بيع النفس محتسبا ... حتى ألاقى في الفردوس حرقوصا[٧]

وابن المنيح، ومرداسا، وإخواته ... إذ فارقوا زهرة الدنيا مخاميصا[٨]

---

(١) هو مرداس بن حدير بن عامر بن عبيد بن كعب الربعي، ويقال له مرداس بن أدية، خارجي الهوى، وتوفى عام ٦١هـ (الأعلام، جـ٧/ ٢٠٢).

(٢) هو عبد الله بن وهب الراسبي، من أئمة الإباضية، وكان ذا علم ورأى وفصاحة وشجاعة، كان مع علي بن طالب، ثم انقلب عليه بعد قضية التحكيم (العقد الفريد، جـ٢/ ٣٦٩).

(٣) شرح نهج البلاغة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، جـ١/ ٤٤٨، طبعة الحلبي ١٩٦٥-١٩٦٧م، والأبيات من الطويل.

(٤) هو ابن مياس المرادي، من شعراء الخوارج، له شعر في فضل على كرم الله وجهه، وليس له ذكر في كتب التراجم (البداية والنهاية، لابن كثير، جـ٤، ٣٢٠ هامش).

(٥) الكامل، للمبرد، ج٣/ ٢٦٢، والأبيات من البسيط التام.

(٦) التربص: الإهمال.

(٧) الحرقوص: في الأصل دويبة كالبرغوث، وهو هنا اسم لأحد السابقين من الخوارج.

(٨) المخاميص: ضامر والبطون، والمقصود: صائمون، أو مترفعون عن الإقبال على متع الدنيا.

٣- مواجهة الخصوم:

فكرة الخوارج التي قام عليها حزبهم: فكرة أساسها دعوى دينية، ولهذا كان منطلقهم في مواجهة الخصوم منطلقاً دينياً في كل الأحوال، ومن ثم، نجدهم ينصحون بعض الخصوم بالحسنى حينا، ويشتدون بالنصح، أو يهددون أحياناً، وقد يصل الأمر إلى تكفير هؤلاء الخصوم؛ وحربهم أحياناً ثالثة.

ومن ذلك ما نظمه "عمرو بن ذكينة الربعي" إلى عمر بن عبد العزيز عند استخلافه، يقول(١):

قل للمولى على الإسلام مؤتنفاً ... وقد يرى أنه رث القوى واه

أزرى به معشر غذوه مأكله إنا ... بنخوة العز والإنزاف والباه

قصدت سبيل الحق يا عمر وإن ... أخاك في الله أمثالي وأشباهي

وإن لحقت بقوم كنت واحدهم ... في جور سيرتهم فالحكم لله

وعندما يتولى "عبد الملك بن مروان" ويبدأ خلافته بكثير من القسوة والشدة مع معارضيه، وذلك من خلال إطلاق يد واليه على العراق الحجاج بن يوسف الثقفي، نجد "عتيبان بن أصيلة الشيباني" يقول مخاطباً الخليفة عبد الملك(٢).

فأبلغ أمير المؤمنين رسالة ... وذو النصح لو تصغي إليه قريب

أتذكر إذا دارت عليك رماحا ... بمسكن والكلبي ثم غريب

فلا صلح مادامت منابر أرضنا ... يقوم عليها من ثقيف خطيب

فإنك إلا ترض بكر بن وائل ... يكن لك يوم بالعراق عصيب

---

(١) معجم الشعراء، المرزباني، تحقيق: عبد الستار فراج/ ٢٢٣، القاهرة ١٩٦٠م. والأبيات من البسيط التام.

(٢) أنساب الأشراف، البلاذرى، ج٧/ ٩٥، دار المعارف ١٩٥٩م، والأبيات من الطويل.

فـلا ضـير إن كانـت قـريش عـداً لنـا يصـــيبون منهـــا مـــرة ونصـــيب

فوارســنا مــن يلقهــم يلــق حتفــه ومــن يــنج مــنهم يــنج وهــو ســليب

وكان الخوارج يكفرون خصومهم – كما سبق – أن أشرت إلى مبادئهم – بل كانوا يكفرون من ليس بخارجي، يشهد بذلك قول "قطري بن الفجاءة" في يوم معركة "دولاب"[1] الذي كان بين نافع ابن الأزرق وأتباعه من الخوارج من جهة، وأتبع الأمويين في البصرة من جهة ثانية، إذ يقول[2]:

وضــاربة خــدا كريمــاً علــى فــتى أغـــر نجيـــب الأمهـــات كـــريم

أصــيب بــدولاب ولم تــك موطنــاً لـــه أرض دولاب وديـــر حمـــيم

فلــو شــهد تنــا يــوم ذاك وخيلنــا تبـــيح مـــن الكفـــار كـــل حـــريم

رأت قتيــة باعــوا الإلــه نفوســهم بجنـــات عـــدن عنـــده ونعـــيم

وحين اشتدت قسوة الأمويين بمعارضيهم، والخوارج على رأسهم، ودأبوا على التمثيل بالجثث بعد قتل أصحابها، نجد الخوارج يقفون في وجه هذا الأمر، ويسخرون من الأمويين، ويعلنون عن استهزائهم بهذا المسلك البغيض.

ومن ذلك ما جاء في قول أبي بلال بن مرداس بن أدية[3]:

مــا إن نبــالي إذا أرواحنــا خرجــت مـــاذا فعلـــتم بأجســـاد وأوصـــال

نرجــو الجنــان إذا صــارت جماجمنــا تحـــت العجـــاج كمثـــل الحنظـــل البـــالي

إنى امـــرؤ باعثـــي ربي لموعـــده إذا القلـوب هـوت مـن خـوف أهـوال

---

(١) دولاب: قريبة بينها وبين الأهواز أربعة فراسخ، كانت بها وقعة بين أهل البصرة والخوارج، وفيها قتل نافع بن الأزرق زعيم الخوارج (البداية والنهاية، جـ٤/ ٨/ ٢٥٢).

(٢) الكامل، ج١٨٢/٢، والأبيات من الطويل.

(٣) شعر الخوارج/٥٠، والأبيات من البسيط التام.

وأدت الأرض مني مثل ما أخذت وقربت لحساب القسط أعمالي

٤- رثاء قتلاهم:

الجهاد مبدأ أصيل لدى الخوارج، وهو – في نظرهم – أفضل من الطاعات، وأسمى القربات التي يمكن أن يتقرب بها الخارجي إلى مولاه، ويتوسل بها إلى رضاه.

ولما كانت دواعي الجهاد موجودة وقائمة من حولهم، كثرت وقائعهم مع خصومهم، وكثر القتلى من بين صفوفهم، ومن هنا كثر شعرهم في رثاء هؤلاء القتلى، وكان شعراً فياضاً بالعاطفة القوية، جياشا بالانفعال الصادق.

ومن ذلك قول الجعد بن ضمام الدوسي يرثى صالح بن مسرح[١]:

أيا عين فأبكى صالحاً، إن صالحاً شرى نفسه لله يبغي بها الخلدا

وقد كان ذا رأى مبين ورأفة صفوحاً عن العوراء يدفعها عمدا

وقد كان في الحرب العوان يشبها ويسعرها بالخيل محبوكة جردا

وعلى هذا الدرب تبدو خطا "عيسى بن فاتك الحبطي" وهو يرثي أبا بلال مرداس بن أدية، وبعض أصحابه حين قتلوا في بعض معاركهم مع الأمويين[٢]:

ألا في الله لا في الناس شالت بداود وإخوته الجذوع

مضوا قتلا تمزيقاً وصلباً تحوم عليهم طير وقوع

إذا ما الليل أظلم كابدوه فيسفر عنهم وهم ركوع

أطار الخوف نومهم فقاموا وأهل الأمن في الدنيا هجوع

---

(١) أنساب الأشراف، البلاذري جـ٨٧/٧، والأبيات من الطويل.

(٢) معجم الشعراء، المرزباني/ ٢٥٨، والأبيات من الوافر التام.

وهكذا، يبدو رثاء الخوارج لقتلاهم ذا عاطفة قوية جياشة، وانفعال صادق مشبوب بالحرقة والألم.

٥- العصبية الدينية:

كانت فكرة التسوية من أبرز الأفكار التي آمن بها الخوارج، ودافعوا عنها، فلا فرق عندهم بين عربي وأعجمي، ولا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى.

ومن هنا، اختفت من بين صفوفهم النعرة القبلية، والتعصب للأنساب والعشائر، واجتمعت كلمتهم على العصبين للدين وهو الرأي الذي خرجوا من بداية أمرهم استجابة له، وتضحية في سبيله، مهما كلفهم ذلك من تضييق وعنت أو قتل أو تشريد.

ومن هذا المنطلق نجد "عيسى بن الخطى" يقول في هذا المعنى[١]:

أبى الإسلام لا أب لي سواه ... إذا فخروا ببكر أو تميم

كلا الحيين ينصر مدعيه ... ليلحقه بذى الحسب الصميم

وما حسب ولو كرمت عروق ... ولكن التقى هو الكريم

فالفخر الحقيقي ليس بأن ينسب الإنسان إلى قبيلة عريقة، أو عصبية قوية، ولكنه: تقوى الله، وخوفه سراً وعلانية.

ومن ذلك – أيضاً – قول "الطرماح بن حكيم"[٢]:

فوارس من شيبان ألف بينهم ... تقي الله، نزالون عند التزاحف

إذا فارقوا دنياهم، فارقوا الأذى ... وصاروا إلى موعود ما في المصاحف[٣]

---

(١) العقد الفريد، جـ٢/١٣٩. والأبيات من الوافر.

(٢) السابق نفسه، والأبيات من الطويل.

(٣) يقصد بالشطر الأخير من هذا البيت، أن الخارجي إذا مات أو استشهد، دخل الجنة، أخذاً من آيات القرآن الكريم الكثيرة في هذا الشأن، وإن كانت الآيات تطلق الحكم ولا تخصصه بفئة بعينها.

وإذا كان دوام الحال من المحال كما يقال، فإن اتحاد الخوارج المنيع، المستعصي على كل من أراد النيل منه، قد تسرب إليه الوهن والضعف، وذلك حين اختلفت آراؤهم، وتعصب كل منهم لرأيه، وخرج عن أصحابه، وانفصل عنهم، فكثرت فرقهم، وشاع اختلافهم، مما أحزن كثيراً منهم، ورأى في ذلك عصبية جديدة كانت جماعتهم في غنى عنها.

يقول شاعرهم "زيد بن جندب الأزرقي"[١] مجسداً هذا الموضع[٢]:

قــل للمحلــين قــد قــرت عيــونكم بفرقـــة القـــوم والبغضـــاء والهـــرب[٣]

كنـــا أناســـا علـــى ديـــن ففرقنـــا قـــرع الكـــلام وخلـــط الجـــد باللعـــب

مـا كـان أغـنى رجـالاً ضـل سـعيهم عـــن الجـــدال، وأغنـــاهم عـــن الخطـــب

(١) هو زيد بن جندب الإيدي الأزرقي، خطيب الأزارقة، وأحد شعرائهم، وكان ينعت بالمنطيق (الأعلام، جـ٢/١٥٨).

(٢) البيان والتبيين، ج١، ٢٦٧، والأبيات من بحر البسيط.

(٣) المحلين: اتهام بإباحة ما حرم الله، وقد رماهم الكميت بذلك من قبل وها هو ذا شاعرهم يتهم به الأحزاب الأخرى منهم.

رابعاً: شعر الزبيريين وأبرز أغراضه:

قام عبد الله بن الزبير بأمر نفسه، ولم يقم بأمره أحد، يتعصب أو يقدم الحجج والبراهين المقنعة لأحقيته بالخلافة، فهو وحده الذي رأى نفسه – منذ فترة مبكرة – جديراً بالقيام بأمر المسلمين، فترقب الفرصة المواتية لطلب هذا الأمر، وقد واتته هذه الفرصة حين مات معاوية ثم ساعد عليها موت الحسين، وموت يزيد واضطراب الأمر بين الأمويين – كما سبق أن أشرت – فعلا أمره، واستجابت لدعوته الأمصار المختلفة، وظل خليفة المسلمين منذ أواخر سنة ٦٣هـ، حتى قضى عليه عبد الملك بيد الحجاج سنة ٧٣هـ، وهي مدة قصيرة، شغلته خلالها أمور استقرار الدولة، وحرب خصومها، وانتهى الأمر بموته، فلم تكن هناك أسس نظرية يرفعها هو، أو يدعو إليها أنصاره في حياته أو بعد مماته، بحيث تشكل نظرية سياسية، ورؤية خاصة في الخلافة من بعده، اللهم إلا ما كان من الاعتزاز بالقرشية العربية، والحق على أن تكونا الخلافة فيمن توفر له الدين والتقوى والشجاعة والعلم من أبنائها.

ومن هنا: قل الشعر الزبيري، ولم يعرف شاعر منح ولاءه خالصاً لآل الزبير، وخصهم بعطائه الفني، وإنما كان كل من ساندهم من الشعراء – وعلى رأسهم عبيد الله بن قيس الرقيات – مدفوعاً بأسباب شخصية، أو مدفوعاً بكراهية للأمويين، توجهه إلى صفوف خصومهم، أيا كان هؤلاء الخصوم.

ومن هنا يمكن القول: بأن عبيد الله بن قيس الرقيات، هو شاعر الزبيرين الأول، وما كان من شعر لغيره في آل الزبير، فهو قليل لا يمثل لوناً من الانتماء الحقيقي لهم.

وقد اتجه الشعر الذي قيل في الزبيريين إلى عدة اتجاهات، تشمل عدة مضامين، منها ما يلي:

١- إعلاء الانتماء القرشي:

كانت الحجة الأساسية التي يستند عليها عبد الله بن الزبير في استحقاق الخلافة، هي انتماءه إلى قريش، وهذا الأمر يمنحه الكثير من أصالة العروبة، والقرابة إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم)، والسبق في الإسلام.

وقد أدرك الشعراء ذلك، فأشادوا بهذا الانتماء كثيراً، وألحوا إلى أن أمر المسلمين منذ خرج من الحجاز وهو معوج، والمسلمون في غمار الأحداث المتوالية تائهون متفرقون في سبل شتى.

ومن ذلك قول "ابن قيس الرقيات"[١] مادحاً عبدالله بن الزبير[٢]:

وابن أسماء خير من مسح الرك (م) ن فعالا، وخيرهم بنياناً

وإذا قيل من هجان قريش كنت أنت الفتى وأنت الهجانا[٣]

ويذكر "ابن قيس الرقيات" أن بقاء قريش المتمثل في ابن الزبير، هو بقاء لكل الأحياء، وأن زواله والقضاء عليه قضاء على كل حي حيث كان، فالناس بغير قرشي عادل يشبهون غنما من غير راع، وقد هجمت عليها الذئاب من كل صوب وحدب.

يقول مبدياً تعصبه لقريش، ونفرته من بعد الخلافة عنهم[٤]:

أيها المشتهى فناء قريش بيد الله عمرها والفناء

---

(١) هو عبيد الله بن قيس بن شريح بن مالك، من بني عامر بن لؤي، شاعر قريش في العصر الأموي، وكان مقيماً في المدينة، توفى عام ٨٥هـ (الأعلام، جـ٤/ ١٩٦).

(٢) ديوان ابن قيس الرقيات/ ١٨٩، طبعة بيروت (بدون تاريخ)، والأبيات من الخفيف.

(٣) يقال: رجل هجان: كريم الحسب نقيه (اللسان، جـ١٣، ٤٣٢).

(٤) الديوان/ ١٨٢ والأبيات من الخفيف.

إن تـــودع مـــن الـــبلاد قـــريش لا يكـــن بعـــدهم لحـــي بقـــاء

لـــو تقضـــى وتـــترك النـــاس كـــانوا غـــنم الـــذئب غـــاب عنهـــا الرعـــاء

ومن ذلك ما جاء عند "النابغة الجعدي"(١) في قوله(٢):

حكيـــت لنـــا الصـــديق لمـــا وليتنـــا وعثمـــان والفـــاروق فـــارتاح معـــدم

وسويت بين الناس في العدل فاستووا فعـــاد صـــباحاً حالـــك اللـــون مظلـــم

فبتولية "عبد الله بن الزبير" عادت الخلافة إلى سالف أيامها، حين كان أبو بكر، وعمر خلفاء للمسلمين، يحكمون فيهم بشرع الله.

وإلى جانب "عبد الله بن الزبير" استحق أخوه "مصعب" الإشادة والتقدير لدوره الجليل في إرساء دعائم الخلافة للزبيريين، وإخضاع أعدائهم، يقول الشاعر "ابن قيس الرقيات"(٣):

إنمـــا مصـــعب شـــهاب مـــن الله تجلـــت عـــن وجهـــه الظلمـــاء

ملكـــه ملـــك قـــوة لـــيس فيـــه جـــبروت منـــه، ولا بـــه كـــبرياء

يتقـــي الله في الأمـــور وقـــد أفلـــح مـــن كـــان همـــه الاتقـــاء

٢- مواجهة الخصوم:

كان بنو أمية هم أبرز أعداء الزبيريين منذ يوم الحرة، وحصار جيش يزيد لمكة المكرمة، ولذلك صب الزبيريون عليهم جام غضبهم قبل غيرهم، وأخذوا ينسبون إليهم كل بلاء حل بالبلاد، وكل فتنة أقضت مضاجع المسلمين يقول عبيد الله بن قيس الرقيات(٤):

---

(١) هو قيس بن عبد الله بن عدس بن ربيعة الجعدي العامري، زبيري الهوى والمنزع، مات بأصبهان عام ٥٠هـ (الأعلام، جـ٥/ ٢٠٧).

(٢) تهذيب الكامل، ج١، ٢٢٥، والأبيات من الطويل.

(٣) الديوان/ ١٨٤، والأبيات من الخفيف.

(٤) المصدر السابق نفسه/ ١٨٣، ١٤٨، والأبيات من الخفيف.

كيف نومي على الفراش ولما ... يشمل الشام غارة شعواء

تذهل الشيخ عن بنيه وتبدى ... عن براها العقيلة العذراء[1]

أنا عنكم بني أمية مزور ... وأنتم في نفسي الأعداء[2]

إن قتلى بالطف قد أوجعتني ... كان منكم – لئن قتلتم شفاء

وعندما يهزم جيش الزبيريين في مرج راهط أمام جيش حسان بن مالك الكلبي وإلى الأردن لمروان بن الحكم، يحزن الزبيريون لذلك حزناً شديداً، ويجمعون أمرهم على الانتقام من جيش الأمويين، وممن شايعهم من القبائل العربية بزعامة قائدهم حسان بن مالك يقول شاعرهم "زفر بن الحارث"[3] متحدثاً عن هذا الأمر[4]:

أريني سلاحي لا أبالك إنني ... أرى الحرب لا تزداد إلا تماديا

أتذهب كلب لم تنلها رماحنا ... وتترك قتلى راهط هي ماهيا

لعمري لقد ابقت وقيعة راهط ... لحسان صدعاً بيننا متنائيا

فلا صلح حتى تنحط الخيل بالقنا ... وتثأر من نسوان كلب نسائيا

ألا ليت شعري هل تصيبن غارتي ... تنوخا وحي طي من شفائيا

ولقد سخر الزبيريون من دعاوى الكيسانية[5] التي روجها المختار وأنصاره من أنهم مؤيدون بالملائكة، فقد رأى الزبيريون أن هؤلاء ما هم إلا مروجون لما ليس في الإسلام؛ لأنهم بقايا أصحاب عبد الله ابن سبأ اليهودي.

---

(١) البرة: الخلخال.

(٢) مزور: متباعد متجاف.

(٣) هو زفر بن الحارث بن عبد عمرو الكلابي، من التابعين، مات في خلافة عبد الملك بن مروان، نحو سنة ٧٥هـ (الأعلام، جـ٣/٤٥).

(٤) تاريخ الطبري، جـ٦/٤١. والأبيات من الطويل.

(٥) فرقة من فرق الخوارج.

في ذلك يقول أعشى همدان[١]:

شـــهدت علـــيكم أنكـــم ســـبئية	وإني بكـــم بأشـــرطة الشـــرك عـــارف
وأقســـــم ماكرســـــيكم بســـــكينة	وإن كـــان قـــد لفـــت عليـــه اللفـــائف
وأن لـيس كالتـابوت فينـا وإن سـعت	شـــبام حواليـــه ونهـــد وخـــارف[٢]
وإني امـــــرؤ أحببـــــت آل محمـــــد	وتابعـــت وحيـــاً ضـــمنته المصـــاحف
وتابعـــت عبـــدالله لمـــا تتابعـــت	عليـــه قـــريش شمطهـــا والغطـــارف[٣]

ويلوم "ابن قيس الرقيات" أهل الكوفة والبصرة؛ لخذلانهم مصعب بن الزبير وخيانته، وبيع دمه لعبد الملك بن مروان، مما أدى إلى مقتله في موقعة دير الجاثليق، يقول[٤]:

لقـــد أورث المصـــرين خـــزياً وذلـــة	قتيـــــل بـــــدير الجـــــاثليق مقـــــيم
تـــــولى قتـــــال المـــــارقين بنفســـــه	وقـــــد أســـــلماه: مبعـــــد وحمـــــيم
فمـــا نصـــحت لله بكـــر بـــن وائـــل	ولا صـــــبرت عنـــــد اللقـــــاء تمـــــيم
جـــزى الله كوفيـــا هنـــاك ملامـــة	وبصـــــــريهم إن الملـــــــيم ملـــــــيم
وإن بـــني العـــلات أخلـــوا ظهـــورنا	ونحـــــن صـــــريح بيـــــنهم وصـــــميم

٣- رثاء موتاهم:

كثرت وقائع الزبيريين مع أعدائهم، وكثر – كذلك – سقوط أنصارهم في تلك الوقائع، ولكن موت "مصعب" على بطولته وشجاعته، وموت "عبدالله" في بسالة نادرة، كانا الحدثين اللذين أثارا إعجاب الناس، واستمالا قلوبهم، واستأثرا بكثير من شعر الرثاء.

---

(١) تاريخ الطبري، جـ١/ ١٨٧. والأبيات من الطويل.

(٢) كل من: شبام، ونهد، وخارف: أسماء أحياء وقبائل اجتمعت حول المختار.

(٣) الشمط: بيض الرؤس، والمقصود: الشيوخ الكبار. والغطارف: السادة الأشراف.

(٤) الديوان/ ١٨٤، والأبيات من الطويل.

يقول "عبيد الله بن قيس الرقيات" في رثاء عبد الله بن الزبير[١]:

لـو بكـت هـذه السـماء علـى قـوم ... كـــرام بكـــت علينـــا الســـماء

عــين فــأبكى علــى قــريش وهــل ... يرجــع مــا فــات إن بكيــت البكــاء

تـــرك الـــرأس كالثغامـــة مـــني ... نكبـــات تســـرى بهـــا الأنبـــاء

وقال آخر في رثاء عبد الله بن الزبير[٢]:

نعــى النــاعي الــزبير فقلــت تنعــى ... فـــتى أهـــل الحجـــاز وأهـــل نجـــد

خفيـــف الحـــاذ نســـال الفيـــافي ... وعبـــداً للصـــحابة غـــير عبـــد[٣]

تلك أشهر الموضوعات والمضامين التي دار شعر الزبيريين في فلكها، والتي حاز "ابن قيس الرقيات" فيها على قصب السبق دون غيره، إذ لم يبد لغيره من الشعراء ما يذكر في مناصرة الزبيريين.

(١) الديوان/ ١٨٢، والأبيات من الخفيف.

(٢) ديوان الحماسة، جـ١/٤١٤، والأبيات من الوافر

(٣)الحاذ: هو الظهر، ونسال: مبالغة من الفعل نسل بمعني اسرع.

الفصل الثالث

الخصائص الفنية للشعر السياسي في العصر الأموي

بعد أن انتهى بنا الحديث عن المنطلقات الفكرية والعقدية التي انطلقت منها الأحزاب السياسية في العصر الأموي وعلى أساسها قامت وصارعت غيرها؛ من أجل الحفاظ عليها وإبقائها، وبعد أن أجلنا الطرف في شعر هذه الأحزاب، ووقفنا على أهم الأغراض والمضامين التي توزعت أشعار كل حزب منها، يبقى أمامنا الحديث عن أبرز السمات والخصائص الفنية المميزة لشعر كل حزب منها ...

وسوف نشير في الصفحات القادمة – إن شاء الله – إلى سمات وخصائص شعر كل حزب من هذه الأحزاب ....

أولاً: سمات شعر الحزب الأموي:

بعد القراءة المتأنية الواعية لكم الأشعار الهائلة الذي قيل في الحزب الأموي وأصحابه، بدت لنا مجموعة من أبرز السمات الفنية، والخصائص التي ميزته عن شعر غيره من الأحزاب الأخرى، وبيانها كالآتي:

١- تعدد الأغراض والمضامين:

تلك أبرز سمة لشعر الحزب الأموي، وهي تعدد المضامين التي توزعته، وتنوع الأغراض التي شغل بها شعراؤه.

ويبدو – جليا – من خلال تلك الأشعار – التي تعددت فيها المضامين، وتنوعت فيها الأغراض، صدي الموقف السياسي والدستور الإداري الذي وضعه معاوية بن سفيان من أول الأمر، وتبعه على هديه الخلفاء الأمويون من بعده.

ويبدو في هذا الشعر الهائل – على اختلاف مضامينه – اهتمام واضح بشخصية الممدوح، سواء أكان خليفة، أم واليا، أم قائدا حربيا، فالشاعر الذي يحتج للخلافة، لا يراها مستقرة ذات دعائم شرعية، إلا لأن القائم بأمرها هو الممدوح، والذي يناهض الخصوم يلتفت إلى المباهاة بالممدوح، وإعلاء شأنه، والذي يحتج لمبدأ توريث الخلافة والإغضاء عن الشورى، يفيض في مدح الخليفة القائم، والخليفة المنتظر، ويكون على رأس الصفات التي ينسبها الشعراء للممدوحين من خلفاء بني أمية وولاتهم: التفوق السياسي، والحنكة الإدارية، والشجاعة في ميادين القتال، فضلا عن الرزانة، والحلم، والتقوى.

وكان طبعيا – والحال كذلك – أن يحفل الشعر المناصر لبني أمية بضروب من المبالغات، مما جعل هذه المبالغات تبدو ملمحا مطردا، وسمة عامة في أغلب الأغراض التي سبق التمثيل لها:

٢– التكرار:

التكرار – أيضاً – سمة فنية بارزة في شعر الحزب الأموي، وهو لون من ألوان الإطناب، يستدعيه المقام، وتتطلبه الحاجة؛ لما يتضمنه من أسرار ولطائف تدل على كبير فائدته، وعظيم شأنه.

وبما أن الممدوح – في هذا اللون الشعري – واحد، والمادحين كثر، غلبت على هذا الشعر ظاهرة التكرار، تكرار المعاني، والدوران حول أفكار محدودة، وكذلك تكرار كثير من التعبيرات والقوالب اللغوية، يقع هذا في شعر الشاعر الواحد، ويقع في شعر الشعراء المتعددين.

٣- الميل إلى علو النبرة والجلجلة الخطابية:

الشاعر الذي يناصر بني أمية، ويرفع مذهبهم، لا يستند إلى دعامة قوية من وجاهة الحجة وشرعية الموقف، لذا غلب على أدائه وتصويره: الانفعال، وعلو النبرة، والميل إلى الجلجلة الخطابية، وتبعا لذلك ظهرت آثار الارتجال والتجافي عن الروية، والمراجعة الفنية، والميل إلى التعميم.

٤- غلبة الأسلوب الخبري:

بالنظر في شعر الحزب الأموي، نجد كثرة هائلة في الأساليب الخبرية التقريرية المباشرة؛ وما ذاك إلا لأن شعراء هذا الحزب كانوا حريصين على إقناع الناس بوجهة نظرهم التي يتبنونها في مسألة الحكم، وهم في الوقت نفسه يدركون أن الناس لن يسلموا لهم بيسر وسهولة، ومن هنا حرصوا على الإلحاح على أفكار وأوصاف محددة، مما أدى إلى شيوع وغلبة الأسلوب الخبري، والميل إلى التقريرية المباشرة، وقد نتج عن ذلك عدم الاحتفال بعنصر التصوير في الأداء.

وقد سبق أن ذكرت شواهد شعرية كثيرة لشعراء هذا الحزب، يدرك من يرجع إليها صحة ما ذكرته هنا، وقد أمسكت عن ذكر بعضها هنا؛ إيثار للإيجاز والاختصار.

٥- الميل إلى التكلف:

شاع التكلف لدى شعراء هذا الحزب، وظهرت آثاره على أشعارهم، ولعل أبرزها: الاضطرار إلى تكرار المعاني، والتعبيرات اللغوية كثيراً، هادفين إلى إعطاء المعاني مزيداً من البيان والتأكيد، حيث تثبت في ذهن المخاطب وتستقر في نفسه، ولعل السبب في ذلك: أن معظم الشعراء المناصرين لبني أمية كانوا بين طامع في العطاء، ومتوسل إلى دفع الأذى.

وهذا يفسر ما قام به بعض شعراء الأحزاب الأخرى من مدح للأمويين، فالكميت شاعر الشيعة، وعبيد الله بن قيس الرقيات شاعر الزبيريين يمدحان عبد الملك بن مروان، وأيمن بن خزيم شاعر الشيعة ينقطع لعبد العزيز بن مروان ثم لأخيه بشر.

وفي دواوين هؤلاء الشعراء شعر كثير يفيض بمدح الأمويين، وآثار التكلف عليه بادية ...

٦- تأرجح الألفاظ بين الرقة والفخامة:

من يقرأ شعر الحزب الأموي الحاكم، يلحظ: أن ألفاظه تتأرجح بين الرقة والفخامة، فهي تبدو أحياناً سهلة واضحة، يبدو عليها أثر الرقي الحضاري، وترف الحياة ونعيمها، وأحياناً أخرى تبدو قوية فخمة شديدة...

ولعل السر في ذلك يرجع إلى: اختلاف بيئات هؤلاء الشعراء، واختلاف ثقافاتهم وانتماءاتهم تبعا لذلك، حيث كان منهم الأعجمي الذي ثقف اللغة، وعاش في الحاضرة، واتصلت حياته بقصور الخلافة والأمراء، فلان طبعه، ورقت لغته، وكان منهم العربي البدوي الذي كان يفد

على تلك الحاضرة لفترات قصيرة، ويغشى قصور الخلفاء قليلاً، ثم يرجع إلى صحرائه وجفافه وهذا خشن طبعه، وفخمت لغته.

وتبعا لذلك تشكلت الألفاظ الشعرية لدى شعراء الحزب الأموي، ويرجع ذلك إلى ما سبق من النماذج الشعرية التي مثلنا بها في موضعها، يجد ذلك واضحا جليا ...

٧- التنوع الموسيقي:

حين نجيل الطرف في شعر الحزب الأموي، ونرهف آذاننا للموسيقى السارية بين أعطافه نشعر شعورا قويا بتنوعها وتعددها، حيث يقف الذوق عند بعض النماذج التي اختار صاحبها لها ثوبا من الأوزان الطويلة، وأخرى يختار لها صاحبها وزنا قصيرا، كما أن جرس الكلمات ورنينها يعلو حينا، ويخفت حيناً آخر، تبعا لطبيعة المعاني التي عبر عنها الشعراء، وتبعا لصدق العاطفة، ووحدة الانفعال بالموقف أو الفكرة التي يتحدث عنها كل شاعر.

وقد استطاعت هذه العناصر الفنية أن تؤدي دورها بصورة منسجمة، مما جعلها تبدو وكأنها خلية متعاونة الأفراد، وكل منها يعمل لإنجاح العمل الأدبي والوصول إلى مكانة فنية عالية.

ثانياً: سمات الشعر الشيعي:

بعد أن طفنا في قراءة شعر حزب الشيعة، وتأملنا في نسيجه العام، ونظرنا بدقة في مضمونه ومحتواه، وجدنا أنه ينطوي على عدد من السمات والخصائص الفنية التي تتناسب مع نشأة الفرقة وتعدد جماعتها.

وإليك بيانا بأهم هذه السمات والخصائص:

١- كثرة الأشعار وتنوع المضامين:

أول ما يلاحظ على شعر الشيعة: كثرته، وتنوع مضامينه، وهي مضامين تتناسب مع نشأة هذه الفرقة، وتعدد جماعاتها، كما سبق أن أشرت – وصدور هذه الجماعات المختلفة في أدائها ومعتقدها عن فكر ذاتي، وإيمان غير مفروض، ولا عارض لرغبة أو رهبة.

وقد دار هذا الشعر الكثير مع التقلبات السياسية التي واجهها الحزب في فتراته المختلفة، ومن هنا يغلب عليه الطابع السياسي، إلى جانب الروح الدينية الغالبة على شعرائه.

٢- الإحساس بالإحباط والقهر:

أصحاب المذاهب الشيعي ذوو فكر موضوعي، واعتقاد مقنع – من وجهة نظرهم – وقد دفعهم هذا الفكر، وذلك الاعتقاد إلى تحقيق أهداف بعينها، وقد اصطدموا – على طريق تحقيق هذه الأهداف – بقوى معارضة تحبط كل محاولاتهم من أجل بلوغ هذه الأهداف، وتسلبهم حقهم المشروع، ومن هنا: فإن الإحساس بالإحباط والقهر غلب على روحهم، واتضح في شعرهم متمثلا

في نبرة عاطفية حزينة، كما أملى هذا الإحساس على صياغتهم لونا من الخطابية الملحوظة، وانفعالاً شديداً، ومال بألفاظهم وتراكيبهم نحو الدقة والتلقائية التي أملتها تلك العاطفة وأثر فيها ذلك الانفعال.

٣- الخروج عن ضوابط العقل أحيانا:

دفع الشعور بالإحباط واليأس الشيعة – ومنهم الشعراء – إلى التنفيس عن مكبوت أمنياتهم عبر الرؤى والأحلام المتخيلة، والقصص المنسوجة بخيوط الوهم، والأفكار غير المنضبطة بقواعد العقل، والتفكير الموضوعي، فشاعت في شعرهم روايات تحكي عن مشاركة الجن والملائكة للحسين في كربلاء، وتذهب إلى أن شعراء الجن رثوه وأن نساءهم ناحوا عليهم، وأن الشمس قد كسفت، وتغير لونها؛ حزنا على قتلى كربلاء ... وغير هذه الأساطير التي ترضي الذوق الشعبي، وتصبغ الشعر بتلك الصبغة الشعرية.

٤- الاقتباس القرآني:

حين نقرأ في أشعار الشيعة، لا نعدم أثر الثقافة القرآنية على صياغة أشعارهم، ففي شعرهم تتردد ألفاظ القرآن الكريم، وعباراته بكثرة، وهي تمثل جانبا كبيرا من نسجه التعبيري، وهي سمة فنية بارزة فيه لا يمكن الأغضاء عنها.

٥- شيوع روح الجدل والاحتجاج العقلي:

طبعي أن تشيع روح الجدل والاحتجاج العقلي في شعر الحزب الشيعي، لاسيما حين يحاربون ويناقشون خصومهم، ويبينون لهم وجهة نظرهم، في محاولة للتغلب عليهم، وإقناعهم بصحة المعتقد الذي يؤمن به المتشيعون، وهذا الجدل والاحتجاج يحتاج إلى لون من إعمال العقل والفطنة، وتأييد الكلام بالحجة والبرهان الذي يستميل الخصوم.

٦- التنوع الموسيقي:

الشعر الشيعي –كما سبق أن أشرت – فيه إحساس بالإحباط والقهر والحزن، وفيه جدل واحتجاج، ومن شأن هذين اللونين من العاطفة أن يتنوع معهما التشكيل الموسيقي، فيهبط ويخفت حينا، ويعلو ويحدث ضجيجا في حين آخر، وإن كانت الأوزان ذات الجرس الموسيقي العالي هي الغالبة، وهي تناسب النبرة الخطابية، والانفعال، وتوهج العاطفة.

هذه أبرز السمات والخصائص الفنية التي يمكن رصدها على الشعر الشيعي، والتي يعد شعرهم تجسيدا صادقا لا يخرج عنها.

ثالثاً: سمات شعر الخوارج:

ارتبط شعر الخوارج بحركتهم السياسية، ودار في فلكها، فهو يسجل موقفهم من الأحزاب السياسية القائمة، ويصور رأيهم في الحكم القائم، ويكشف عن صدق إيمانهم، ووجهة نظرهم، كما يكشف من مسلكهم العملي في إخراج تلك الوجهة من النظرية إلى حيز التنفيذ.

ومن هنا، يمكن القول: إن الإطار العام لهذا الشعر، هو الإطار السياسي، أما الروح العامة التي تسوده، فهي الروح الدينية، فلم يكن الدخول إلى معترك السياسة من بادئ الأمر، ولا المواجهة العملية للخصوم، ولا الاستبسال في مواجهتهم، إلا استجابة لواجب ديني هو الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والدفاع عن هذا المعروف، ومساندته بالقوة اللازمة، ورفض ذلك المنكر، ومحاربته بكل الوسائل الممكنة.

ومن هنا اتسم شعر الخوارج بمجموعة من السمات والخصائص الفنية، وبيانها كالآتي:

١- الصدق والوضوح والتلقائية:

الصدق مبدأ أصيل قامت عليه دعوة الخوارج، ولذا تمسكوا به، ولم يتهاونوا فيه لا شكلا ولا مضمونا، ولذا غلب على شعرهم الإخبار بلغة الحقيقة، وقلة الصور مع تشابهها، وصدق الانفعال، وحرارة العاطفة وروح الحزن، والوضوح – كذلك – قرين الصدق، وجناح قوي من أجنحته، فليس من أفكارهم الغموض، أو تأسيس الأمور على قواعد من الشك، ولذا كانت التلقائية، وصدور الأحكام المباشرة ديدنهم، وأصلا من أصول دعوتهم، والقارئ لشعرهم الكثير، يجد ذلك واضحاً جلياً.

٢- شيوع النزعة الحماسية:

شاع في شعر الخوارج لون من النزوع الحماسي بصورة واضحة، فأشعارهم تصور أجواء من التخطيطات والاستعدادات الحربية، وقد دفعهم هذا النزوع إلى اللجوء إلى الخطابية، ورفع نبرة الصوت، تجسيدا لموقفهم، وإظهار ما ينطون عليه من انفعال عاطفي مشبوب.

٣- شيوع المقطوعات:

غلبت المقطوعات على شعر الخوارج السياسي، فليس عندهم قصائد طويلة يتحدثون فيها عن السياسة إلا في القليل النادر.

وكان الارتجال سمة هذه المقطوعات أو الأبيات، وقد اتسمت بتحديد الغرض، ووحدة الموضوع، وائتلاف المعاني التي ترد جميعها من مكان واحد ومحدد.

وكان من الطبعي، أن تتجه هذه المقطوعات إلى الموضوع مباشرة، دون مقدمات طويلة أو قصيرة كما سبق أن أشرنا.

٤- تشابه الأفكار:

معاني شعر الخوارج بصفة عامة، محدودة ومحصورة بحدود حياتهم وأفكارهم، تلك الحياة التي يبدو الفرد فيها عامة والشاعر خاصة وحدة أو نموذجا، وتلك الأفكار التي يشترك فيها الجميع لا ينفرد أحدهم برأي، أو يختص بفكرة، لذلك تشابهت الأفكار، وتكررت المعاني، وإن اختلفت الصياغة لدى شعراء الخوارج جميعا.

٥- الاقتباس القرآني:

غلب على صياغة الشعر السياسي لدى شعراء الخوارج، استخدام المعجم القرآني، وصياغة المعاني القرآنية في قوالب شعرية ذات تأثير يأخذ بالقلوب والألباب، والسر في ذلك يرجع إلى: تقديرهم لكتاب الله العزيز، وتأثرهم بمضمونه وصياغته، كما يرجع إلى طول عكوفهم على القرآن الكريم قراءة، وحفظا ومدارسة.

٦- الميل إلى البداوة:

الميل إلى لغة البادية، من أبرز السمات الفنية التي يتسم بها شعر الخوارج السياسي، وهذه البداوة نراها ماثلة في قوة الألفاظ وغرابة بعضها؛ بسبب عدم شيوعها، وقلة استخدامها.

وهذه السمة البدوية تجعل شعر الخوارج يفيض بملامح القوة والصراحة، في شكله وفي مضمونه.

٧- النغم الموسيقي المجلجل:

مال شعراء الخوارج في شعرهم السياسي، إلى اختيار الإيقاعات القوية، والجرس المجلجل، وربما فسر ذلك: أن أكثر الخوارج كانوا من أهل البادية، ثم إن الخوارج عامة عزلوا أنفسهم عن مجتمع الحواضر الإسلامية، وحرصوا على طبع حياتهم بطوابع خاصة متميزة عن حياة غيرهم من معاصريهم، فضلا عن أثر الحماسة والإحساس بقوة الحق، وصلابة الرأي الذي يؤمنون به، ويقدمون حياتهم فداءه.

رابعاً: سمات شعر الزبيريين:

كان قصر الفترة التي اعتبر فيها ابن الزبير خليفة، وعدم تشكيل نظرية محددة الأبعاد، يدعو إليها ابن الزبير وأعوانه ثم ما يروى من ضن ابن الزبير بالمال على الشعراء – كما سبق أن أشرنا في موضعه – سببا في قلة الشعر الزبيري، وفتور الروح السائدة فيه، وافتقاد القدرة على الاحتجاج للرأي من خلال انفعال صادق وقوي، فغلبت عليه السطحية وعمومية المعاني.

كما ارتبط الشعر الزبيري بالأشخاص، لافتقاده النظرية الفكرية، وارتبط بصفة خاصة بشخصية مصعب بن الزبير الذي تحمل العبء الأكبر في إرساء دعائم هذه الدعوة، وإخضاع خصومها، ودار أغلب هذا الشعر لذلك حول شخصية مصعب، يصف بطولاته، ويشيد بعدله وطيب مسلكه، ويصف ملامحه وطلاقة محياه.

وقد توزعت الأوصاف الدينية والإشادة بالجهود السياسية لمصعب، وعبدالله أغلب النتاج الشعري الذي ينتمي لحزب الزبيري، يضاف إلى هذا شيء من الغضب، والثورة على الأمويين، وإن لم يكن الدافع وراءها إخلاص الولاء للزبيريين، وإنما كان هناك ثأرات شخصية أو قومية للشعراء في أغلب الأحيان، وهذا ما تشهد به النماذج السابق إبرازها.

هذا، ولم تكن الحركة السياسية – بما توافر لها من مؤيدين ومعارضين – لمن تكن لتهدأ طيلة العصر الأموي وإن كان الشعر من أعلى الرايات المرفوعة خلال تلك الحركة، مما يمكن معه القول: إن الشعر السياسي لم ينهض نهضة ملموسة، ولم تتشكل له ملامح محددة في عصر كما هو الشأن في العصر الأموي.

ولقد كان اختلاف الانتماء الحزبي الذي يتوزع ولاء الشعراء سببا في خلق نوع من الجدل والصراع، والفن الذي يقصد إليه كل شاعر؛ رغبة في تحقيق السبق والتفوق على خصمه – شاعر الحزب الآخر – مما أدى إلى تجويد الفن، وأسرع بالنهضة الشعرية قدما، ولعل أهم أثر فني للسياسة في ذلك العصر، يكمن في: أنها استقطبت الفنون الشعرية، وأدخلتها دائرتها، فالمدح الذي ينسب للممدوح خصالا تؤهله لنيل حق ينازعه فيه غيره، وتثبت له فضلا عن سواه، هو مديح سياسي إن جاز هذا التعبير، يتجه كليا إلى نسبة الكفاءة في تولي أمر المسلمين للممدوح، وإثبات استحقاقه – دون سواه بالنهوض بذلك الأمر.

والهجاء، هجاء سياسي يتجه إلى الخصوم المعارضين، يفند دعواهم، ويسلبهم أسلحة المواجهة، والرثاء للقادة والساسة الذين خاضوا المواقف الحربية، وخرجوا بالأمة من التفرق والاختلاف إلى الألفة، ووحدة الصف، والفخر، وهو اعتزاز بالمؤهلات الدينية والسياسية، واحتجاج لصواب الرأي والفعل، حتى يبدو الرأي مرفوضا من الجماعة، ويبدو الفعل منافيا للروح الإسلامي.

وأغرب من هذا أن الغزل – أيضاً – دخل دائرة السياسة، بأن يتغزل الشاعر في نساء خصومه، ويذكر علاقات أو لقاءات تجمعه بهن، لا يريد من وراء ذلك إلا التشهير والازدراء بهم، والإساءة إلى نسائهم(١).

(١) يراجع: تغزل عبيد الله بن قيس الرقيات في أم البنين زوج الوليد بن عبد الملك، الديوان/ ٢١٩، ويراجع: شعر العرجي في أم محمد ابن هشام المخزومي والي مكة أيام هشام بن عبد الملك (في الأغاني، جـ١/٤٠٧).

وهكذا، مارست الحركة السياسية المضطربة دوما في العصر الأموي أثرها على الشعر والشعراء، فاستحق الشعر السياسي بذلك أن يكون الصوت الأعلى بين الأصوات الأدبية المسموعة في ذلك الوقت.

والحمد لله رب العالمين في مبدأ كل أمر ومنتهاه

أهم المصادر والمراجع[1]

أهم المصادر والمراجع بعد القرآن الكريم:

١- الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة، حياة محمد جبريل، الطبعة الأولى، الجامعة الإسلامية ٢٠٠٢م.

٢- الأخبار الطوال، لأبي حنيفة أحمد بن داود الدينوري، طبعة ليدن ١٩١٢م.

٣- الأدب وتاريخه في العصرين الأموي والعباسي، د. علي محمد حسن (العماري) الشركة المصرية للطباعة والنشر ١٩٨١م.

٤- الأدب الأموي ملامح وأعلام د. صلاح رزق، مكتبة الآداب، القاهرة ١٩٩٥م.

٥- أسمى المطالب في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب د. علي محمد الصلابي، مكتبة فياض، المنصورة ٢٠٠٧م.

٦- الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني، طبعة دار الشعب، القاهرة ١٩٦٩م.

(١) روعي في ذكر المصادر والمراجع الترتيب الأبجدي، مع إغفال أداة التعريف (أل).

٧- أنساب الأشراف، أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البلاذري، دار المعارف ١٩٥٩م.

٨- البداية والنهاية، للحافظ بن كثير، تخريج وتحقيق أحمد جاد، دار الحديث، القاهرة ٢٠٠٤م.

٩- تاريخ الأمم والملوك، محمد بن جرير الطبري، الطبعة الأولى، مطبعة الحسينية المصرية.

١٠- دراسات أدبية في عصر بني أمية، د. صلاح عبد التواب وآخرين، مطبعة الحرمين، طنطا ٢٠٠٥م.

١١- الدراسات الأدبية، د. عبد العزيز نبوي وآخرين، الهلال للطباعة والتجارة ١٩٨٥م.

١٢- ديوان الأخطل، تحقيق فخر الدين قباوة، الطبعة الثانية، دار المعارف، بيروت ١٩٧٩م.

١٣- ديوان نابغة بني شيبان، الطبعة الأولى، مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٢م.

١٤- ديوان الفرزدق، جمع وتعليق: عبد الله إسماعيل الصاوي، مطبعة الصاوي ١٩٣٦م.

١٥- ديوان جرير، تحقيق: نعمان محمد أمين طه، الطبعة الثانية، دار المعارف ١٩٨٦م.

١٦- ديوان أبي الأسود الدؤلي، تحقيق عبد الكريم الدجيلي، بغداد ١٣٧٣هـ.

١٧- ديوان الطرماح بن حكيم، تحقيق د. عزة حسن، دمشق ١٩٥٦م.

١٨- ديوان شعر الخوارج، تحقيق د. إحسان عباس، دار الشروق ١٩٨٢م.

١٩- ديوان ابن قيس الرقيات، طبعة بيروت (بدون تاريخ).

٢٠- شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة الحلبي ١٩٦٧م.

٢١- طبقات فحول الشعراء، لابن سلام الجمحي، تحقيق: محمود شاكر، طبعة المدني ١٩٧٤م.

٢٢- العقد الفريد، لأحمد بن عبد ربه الأندلسي، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٧٣م.

٢٣- الفرق بين الفرق، عبد القاهر البغدادي، دار الآفاق، بيروت ١٩٨٠م.

٢٤- القصائد الهاشميات، الكميت بن زيد الأسدي، بيروت ١٩٧٢م.

٢٥- الكامل في التاريخ، أبو الحسن علي بن الأثير، دار صادر – بيروت ١٩٩٥م.

٢٦- لباب الآداب، مجد الدين أسامة بن منقذ، تحقيق: أحمد محمد شاكر، الطبعة الثانية، مكتبة السنة، القاهرة ١٩٨٧م.

٢٧- لسان العرب، لابن منظور الإفريقي، الطبعة الأولى، دار صادر – بيروت – لبنان ١٩٩٠م.

٢٨- مروج الذهب ومعادن الجوهر، أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، مطبعة السعادة، القاهرة ١٩٥٨م.

٢٩- معالم التاريخ الأدبي في العصرين الأموي والعباسي الأول، د. حلمي حسن أبو العز، مكتبة الكرنك، دمنهور ١٩٩٢م.

٣٠- مناقب آل أبي طالب، لأبي جعفر محمد بن على السروري، تحقيق د. يوسف البقاعي، الطبعة الثانية، دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت – لبنان ١٩٩١م.

٣١- مقاتل الطالبيين، لأبى الفرج الأصفهاني، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعرفة – بيروت.